البَابُ الأوّلُ

السيمياء بين ثقافتيْن

- الفصل الأول: قضايا السيميائية
- الفصل الثاني: استقبال السيمياء في الثقافة العربية

oberkandl.com

تمتـد الظواهـر السـيميائية[1] (semiotics)[2] إلى الثقافـة اليونانية والتراث العربي القديـم، بيـدَ أن هويـة السـيمياء النقديـة والمنهجيـة لم تتضح إلا في القرن العشـرين، وأخذت سماتها تتكشَّف ابتداء من منتصفه، وراحت معالمها تتمايز بصفتها "فرعاً من علم اللغويات يتعامل مع معنى الكلمات وخصوصاً، مع دلالات المعنى. وعلاوة على ذلك ينطوي على دراسة العلاقة بين الكلمات والأشياء، بين اللغة والأفكار والسلوك، وطريقة تأثر السلوك بواسطة الكلمات من قبل الآخرين أو الذات"[3].

ويمكن التعرف إلى السيميائية بشكل أدق عند البحث عنها داخل منابتها الأوربية والأمريكية، إضافة إلى كيفية اسـتقبال الثقافة العربية لها؛ مما يكشـف أن بين ولادتها وانتقالها إلى ثقافات أخرى تغيرات قد تكون كبيرة أحياناً.

ومـن الواضـح أنهـا مـرت بتطـورات كبيرة نمَّت علـى قابليتها للتطـور، وقدرتها على تكييف ذاتها، لتغدو أكثر تواؤماً مع سواها من العلوم الأخرى؛ بحيث تفيد مما يمكـن أن يقـع تحـت مرامـي اهتماماتها، إضافة إلى أنها لم تُولَد كاملة أسـوة بالأفكار والنظريات؛ بل نمتْ أولاً بأول، وتركَ الأعلام المؤثرون بصماتهم الفاعلة فيها.

إن النظر إلى استقبال السيمياء في الثقافة العربية يدل أنَّ رحلة تلقيها لم تختلف كثيراً عن الاتجاهات الأخرى، فوقعت في إشـكاليات عديدة متشـابهة معها مثل: سـوء الترجمة واضطراب المصطلح وعدم فهمها بعمق... وكأن هذه الأثمان لا بد أن تدفعها كل ثقافة وافدة إلى بيئة أخرى، فيتوزع جهد اسـتقبالها بين الإفادة منها، والبحث في تلك الإشكاليات.

وقد أبدت السيمياء مرونة كبيرة في قدرتها على قراءة النصوص العربية المتنوعة، وربما هذا يعود إلى عوامل عديدة؛ منها مايخص طبيعة تلك النصوص، وبعضها يتعلق بالسيميائية ذاتها ومنها ما يخص الإرث النقدي العربي.

---

(1) حين ترد المصطلحات الرئيسية، أول مرة، تُكتَب، بالعربية والإنكليزية معاً.

(2) Cuddon-J.A, Dictionary of literary terms & literary theory, revised by C.E. Preston, Puplished by the Penguin Group, London, Fourth edition, 1998, p 804.

(3) Ibid, p 804.

الفصل الأول

قضايا السيميائية

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً: السيمياء: المنهج والمفهوم والمصطلح

يتقاطع مصطلح السيمياء مع مفاهيم عديدة تعبّر عنها، أو تدور في فلكها، تحاول أن تشكل المنهج السيميائي بصفته معرفة قابلة للتوظيف في عدد من المجالات؛ جعلت الباحثين يعلقون الكثير من الأهمية عليها، وضرورة الإفادة من علميّتها.

ثمة من يرى أن المنهج النقدي في أحد وجوهه طُرُقٌ إجرائية لمفهوم يُرَادُ منه التحوّل إلى منظومة ذات جدوى؛ وقد أُشِيْرَ إلى فهميْن رئيسيين للمنهج: الأول: عام يتعلق "بطبيعة الفكر النقدي ذاته في العلوم الإنسانية بأكملها، وهذه الطبيعة الفكرية النقدية أسّسها "ديكارت" على أساس أنها لا تقبل أي مسلمات قبل عرضها على العقل، ومبدؤه في ذلك الشك للوصول إلى اليقين، فرفض المسلمات إجرائياً وعدم تقبل إلا ما تصح البرهنة عليه كلياً هو جوهر الفكر النقدي..."[1].

والثاني: خاص يرتبط "بالدراسة الأدبية، وبطرق معالجة القضايا الأدبية والنظر في مظاهر الإبداع الأدبي بأشكاله وتحليلها"[2].

وقد حاولت النظريات النقدية أن تسلك مناهج للاهتمام بما حول النص للوصول إليه في بعض الأطوار، ثم وُجِّهت الجهود النقدية في مرحلة تالية إلى النص الأدبي ذاته ببناه التركيبية والنحوية، ثم مع ظهور الظاهراتية وفلسفة كل من (هوسرل Husserl) و(هايدغرHeidegger) وتحولها "إلى نظرية نقدية على يد مجموعة من المفكرين"[3] ارتبطت البنية التركيبية (Structure Syntax) للغة (Language) بالفلسفة (philosophy)، ووصلتْ إلى موت المؤلف (Author Death) والاهتمام بالمتلقي،

(1) فضل- صلاح، في النقد الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2007، ص 8.

(2) المرجع نفسه، ص 8.

(3) الرويلي- ميجان، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2002، ط3، ص 321.

وتطـورت للاهتمـام بالنسـق(Pattern)، ونظريات التأويـل (Hermeneutics Theory)، وما حول النص[1]، وما زالت الحركة النقدية تتشـارك مع تحولات العالم المتسـارعة والعميقة.

ويرى نفر من النقاد أن السـيمياء تحاول أن تجمع بين ما سـبق كله، مسـتندين على أنها تنظر إلى العالم بصفته علامة (Sign) تحتوي تفاصيل، يمكن أن تتحوّل إلى علامات دون خلخلة العلامة الكبرى، ضمن انسجام كوني شمولي؛ يحتاج فهمُه إلى عملية تمحيص في مكونات هذه العلامة الكبرى، والتوصل إلى دلالات تتناسج فيما بينها، حيث اسـتهدفت "قضايا الطرح التاريخي والنقد الموضوعاتي، وكشـفت القناع عـن سـلطة المرجـع وتهافت أسـبقية المعنى، وكشـفت الأقنعة المتعـددة التي اختفت خلفها هذه السـلطة، وهي أقنعة تمتد من الأيديولوجيا الفجة إلى أدق أنواع الأحكام الجمالية والأخلاقية"[2].

والسـيمياء بمفهومهـا الرئيـس: العلامـة، موجودة في معظم الثقافات البشـرية[3]، ويكاد "لايخلو التراث الفكري لأي شعب متحضر من تصورات سيميائية، ولعل ذلك يتضح أكثر عندما يتعلق الأمر بالتراث العربي، لا سـيما وهو تراث قائم في الأسـاس

(1) انظر: شرفي- عبد الكريم، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة، الدار العربية للعلوم- ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2007، ط1، ص ص 150-153.

(2) الرويلي- ميجان، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 184.

(3) انظر: كوبلي- بول، ليتسا جانز، علم العلامات، تر: جمال الجزيري، مر: إمام عبد الفتاح، المجلس الأعلى للثقافة، العدد549، القاهرة، 2005، ط1، ص ص 10-13. ذهب المؤلفان إلى أنه مما يدخل في السيمياء جهود أفلاطون (ح428-348ق.م) الذي تأمل في محاورة كوراتيلوس وأرسطو في (384-322ق.م) حيث أولى عناية بالأسماء في كتابيه فن الشعر وعن التأويل. (فكلا المصطلحين (semeion) (sign) من أصل إغريقي والتي تعني علم العلامات) كما ترد مصطلحات السيمياء في مناظرات حول العلامات في العالم القديم بين الرواقيين stous والأبيقوريين (epicureans 300ق.م. في أثينا) حيث تمثلت نقطة الجدل الكبرى في الاختلاف بين العلامات الطبيعية (التي تحدث تلقائيا في الطبيعة) والعلامات العرفية (المخصصة للتواصل على وجه الدقة). فقد رأى الرواقيون بوجه خاص أن العلامة المثالية هي ما نطلق عليها اسم العَرَض الطبي، وظل العرض علامة نموذجية طوال الفترة الكلاسية. ومن ثم جاء القديس أغسطين (354- 430). وطور رؤية في العلامات العرفية signa data. وعلى خلاف الشارحين الكلاسيين قدم أغسطين هذه العلامات بصفتها الموضوعات المناسبة للتمحيص الفلسفي. كما ساعد على تضييق مجال دراسة العلامات بأن أظهر موقفه حيال الطريقة التي تبدو من خلالها الكلمات على أنها "قرائن" "كلمات ذهنية"...

على تفكير لغوي بلاغي"[1].

وللسيميائية جذور لغوية في المعجم العربي، فهي تتعالق مع حقل دلالي لغوي- ثقافي يحضر معها؛ حيث إن البحث في الجذر اللغوي لأصول مثل: التسمية والسمة والوسام والسيماء والسيمياء والعلامة يكشف ثراء المادة المتعلقة بها[2].

وقد تحدثت بعض الكتب العربية التراثية عن مفاهيم قريبة من السيمياء، دللت على الكثير مما نعرفه الآن من مكوناتها، وبأنها دال (Signification) ومدلول (Signified) من خلال ما "شاع عند اللغويين والأصوليين والفلاسفة وفقهاء اللغة العرب أن الأشياء متعددة الوجود، فهي موجودة في الأذهان وموجودة في اللسان، وكل وجد آلياته وطبيعته الخاصة"[3]، فكان يُدَلَّل على وجود المفهوم في الذهن قبل تحوله إلى كلام (Speech)، ومن ثم وجود الدليل (Index)، وهو المفردة الدالة، ثم المدلول، وهو الموضوع (Object) الذي يعبر عن حالة خاصة تربط بين المفهوم والدليل؛ بيد أن هذه الشذرات لم يتح لها أن تتطور ضمن رؤية فكرية ناطمة لها.

وعُرِّبَ مصطلح السيمياء بـ "السيميولوجية" و"السيميائية" و"السيميوطيقا" والسيمية" و"الرموزية" و"الدلائلية" و"علم العلامات" و"العلامية" وسواها[4].

وقد اقتُرِحَتْ مجموعة من المفاهيم لتوصيف السيمياء في الدراسات النقدية الحديثة دون أن تحيط بجوانبها المختلفة، فهي "مجال واسع جداً لا تملك أيٌّ معالجة له أن تكون شاملة.... إذ توجد في السيميائيّة مدارس فكرية مختلفة، ويغيب بشكل ملفت إجماع المنظّرين المعاصرين حول اتّساع مجال السيميائيّة وأفاهيمها الأساسيّة وأدوات التحليل فيها"[5].

فمن الباحثين مَن جعل التعريف بها عاماً وقد تنبه إلى تعريف (سوسير) للإشارة بقوله: "كنهٌ أو ماهية قابلة للإدراك بالنسبة لمجموعة محددة من مستعمِليها، وأنها في

(1) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب/ من أجل تصور شامل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2010، ص 30.

(2) ابن منظور- محمد (ت 711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، مادة وسم، ومادة سيم.

(3) الغزالي- أبو حامد محمد(ت 505 هـ)، معيار العلم في المنطق، شرحه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990، ص 47.

(4) الموسى- خليل، إبراهيم كايد محمود، من مصطلحات معجم النقد الأدبي المعاصر، دمشق، 2000، ط1، ص 52.

(5) تشاندلِر- دانيال، أسس السيميائية، تر: طلال وهبه، مر: ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2008، ط1، ص 22.

حد ذاتها ناقصة المعنى تماماً إذا أدركها أحد من غير هذه المجموعة"[1].

وهناك من وصفها بأنها "علم أو دراسة العلامات (الإشارات) دراسة منظمة منتظمة"[2].

وكذلك: علم "يدرس حياة الدلائل والعلامات داخل النسق الاجتماعي"[3].

وجاء انتقاد وصف السيميائية بالعلم نتيجة الإشارة إلى أن "مصطلح "علم" مُضلّل. حتى الآن لا تملك السيميائيّة مسلَّمات نظريّة أو نماذج أو منهجيّات تطبيقيّة يقوم حولها إجماع واسع"[4].

وهناك من ركّز إبان الوقوف على مفاهيمها على علاقتها "بالتأويل وتداولية العلامة"[5].

وقد حاول (بيرس Charles Sanders Peirce) تتبع السيميائية عبر مراحل متعددة إلى أن وصل إلى أن: "العلامة أو الماثول شيء يعوّض بالنسبة إلى شخص ما شيئاً ما بأي طريقة وبأي صفة. إنه يتوجه إلى شخص لكي يخلق عنده علامة موازية أو علامة أكثر تطوراً. إن هذه العلامة التي يخلقها أطلق عليها مؤولاً للعلامة الأولى. إن هذه العلامة تحل محل شيء؛ موضوعها. إنها تحل محلّه لا من خلال كل مظاهره، بل من خلال فكرة أطلق عليها عماد الماثول"[6].

ونتيجة الربط بين العلامة والمؤوّل والموضوع وتوسّعِ بعضِهِم في مجالاتِها؛ فقد شكَّلتِ السيمياء بالنسبة لعدد منهم: "إطاراً مرجعياً يتضمن أي دراسة أخرى"[7].

ونوّع فريق من المهتمين مجالات دراستها لتشمل "الأخلاق والاقتصاد وتاريخ

---

(1) وهبه- مجدي، معجم مصطلحات الأدب، مكتبة رياض الصلح، بيروت، 1983، طبعة جديدة، ص 520.

(2) الرويلي- ميجان، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 177.

(3) بوخاتم- مولاي علي، مصطلحات النقد السيماءوي، الإشكالية والأصول والامتداد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ط1، ص 171.

(4) تشاندلِر- دانيال، أسس السيميائية، تر: طلال وهبه، ص 31.

(5) ديكرو- أوزوالد، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان (طبعة منقّحة)، تر: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2007، ط2، ص 193.

(6) بنكراد- سعيد، السيميائيات: النشأة والموضوع، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس، 2007، ص ص 34-35.

(7) ديكرو- أوزوالد، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، ص 194.

العلـوم والرجـال والنسـاء والكيميـاء والفلـك بوصفها دراسـات سـيميائية، ملحّاً على العلاقـة الثلاثيـة بيـن العلامـة والموضوع والمؤوّل"[1]. وهذا قـاد إلى نتيجة مفادها أن السيمياء نظرية عامة تشمل كل العلوم.

وفي وقت متزامن مع الدعوات لإدراك وجود الفلسفة والتنظير لها فينومينولوجياً[2] (Phenomenology)، أُشِيْرَ من (سوسير) إلى أن "اللغة نسق من العلامات التي تعبِّر عن الأفكار"[3]، فصبّ (هوسرل) جلّ اهتمامه على القصدية (Intentionality) في العلامة، محاولاً الوصول إلى نظرية عامة في هذا المجال تربط بين العلامات والدلالات، وقد "طور في كتابه "البحوث المنطقية" نظرية عامة للقصدية، وهي مصممة بوصفها علاقة إحالة. ولقد أنشأ في إطارها نظرية للعلامات وللمعنى أيضاً"[4].

وكان قد نبَّه (سوسيرFerdinand De Saussure) إلى أنه من الجوهري دراسة حيـاة العلامـات فـي قلب الحياة الاجتماعية، وذلك عندما تنبأ بحياة مضيئة للسـيمياء؛ إذ رأى أن هناك إمكانية كي "نؤسّس علماً يدرس العلامات داخل الحياة الاجتماعية، فيشكل هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وسنطلق عليه اسم- علم العلامات أو السـيمولوجيا"[5]. وكانت رؤاه "نقطة انطلاق لتطوير منهجيّات بنيويّة متنوّعة تحلّل النصوص والممارسات الاجتماعيّة"[6].

وقـد أكَّـد كل مـن (بيـرس) و(سوسـير) أن "السـيميائية تشـير إلـى نظريـة أنظمة العلامـة فـي اللغـة"[7]. ولا يُقصـد اللغـة المكتوبة التي تتكون من أحرف فحسـب، بل أي نظام إشـاري (Sign System) له وظائف، ويشـكل صلة وصل بين متحاورِيْن، أو متواصِلِيْن، وهذا ما رآه (رومان جاكبسـون Roman Jakobson) في السـيميائية، التي

(1) المرجع نفسه، ص 194.

(2) انظر: إنقزّو- فتحي، هوسِّرل ومعاصروه، من فينومينولوجيا اللغة إلى تأويلية الفهم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2006، ط1، ص 36.

(3) ديكرو- أوزوالد، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، ص 195.

(4) المرجع نفسه، ص 196.

(5) دي سوسير- فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي، ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1986، ص 33.

(6) تشاندلِر- دانيال، أسس السيميائية، تر: طلال وهبه، ص 31

(7) Cuddon-J.A, (revised by C. E. Preston) Dictionary of LITERARY TERMS & LITERARY THEORY, revised by C.E. Preston, pg (804) ,

"تتناول المبادئ العامة التي تقوم عليها بنية كل الإشارات أيّاً كانت، كما تتناول سمات استخدامِها في مُرسلات وخصائصَ المنظومات المتنوّعة للإشارة ومختلف المُرْسَلات التي تستخدم مختلف أنواع الإشارات"[1]. في حين أن الإشارة لدى (أمبرتو إيكو Eco Umberto) تحوَّلت إلى اللامتناهي (Non Terminal) من المعاني والدلالات، فهو يعتني بما يدعوه "الإشارة اللامحدودة، أي المفهوم الذي يدخل فكرة العملية في بنية المعنى"[2]. كما طوّر (تشارز موريس Charles Morris) نظرية عامة لتوليد العلامات "من خلال منظور سلوكي يحدد العلامة بوصفها مثيراً إعدادياً بالنسبة إلى موضوع آخر لا يمثل مثيراً في اللحظة التي ينطلق فيها هذا السلوك"[3].

وعدّ بعضهم "السيميم sememe بأنه الوحدة الدلالية الأساسية/ الوحدة الدلالية الصغرى، بني المصطلح قياساً على phoneme أصغر وحدة صوتية أو الوحدة الصوتية الأساسية- ومن ثم أشاعه أومبرتو إيكو للإشارة إلى أصغر وحدة مستقلة على المستوى السيميوطيقي"[4].

وبناء على ما سبق يمكننا القول:

إنَّ السيمياء قد صيغتْ في مفهوميْن رئيسيْين؛ لكل منهما أسبابه الفكرية والمعرفية:

المفهوم الأول: عام يرى أن السيمياء فلسفة تكاملية للحياة تنضوي تحتها مجموعة من مجالات الحياة العلمية والحياتية، حيث لا حدود لفضاءات السيميائية بصفتها علماً؛ "إذ تتخذ موضوعاً لها كل شيء وأي شيء مهما كان"[5].

وبالتالي؛ فإنَّ قدرتها على دراسة الأجناس والفنون المختلفة ممكنة الحدوث، ويمكن دراسة كل مفردات الحياة سيميائياً، لأن كل ما نقوم به له دلالات سيميائية: طعاماً وشراباً ولباساً وحركات وعادات وتقاليد.

والمفهوم الثاني: خاص، محدّد يرى أن السيمياء منهج نقدي يختلف عن المناهج

(1) تشاندلِر- دانيال، أسس السيميائية، تر: طلال وهبه، ص ص 31-32.

(2) راي- وليم، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تر: يوئيل يوسف عزيز، دار المأمون، بغداد، 1987، ص 141.

(3) ديكرو- أوزوالد، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، ص 196.

(4) عناني- محمد، المصطلحات الأدبية الحديثة/ دراسة ومعجم/ إنجليزي- عربي، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، 1997، ط2، ص 95 (من المعجم).

(5) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 79.

openkandil.com

النقديـة الأخـرى، إذ شـارك معظـم أعلامه في المناهج النقدية السـابقة والمرافقة، مما دفعهـم للإفـادة منهـا فـي إيجاد الإجـراء الأكثر مناسـبة للتطبيق على مجـالات الحياة المختلفـة، متناوليـن الأدب بوصفـه مفرزاً طبيعياً للواقع، وهذا جعل السـيميائية مهتمة بالمجـال الثقافـي والإيديولوجـي والفلسـفي والرياضـي والتأويلي والسـردي؛ إذ تقوم باقتحـام النـص السـردي، وفـق إحدى الطـرق الإجرائية، وتحرص علـى المواءمة بين الجانبيـن الخارجـي والداخلـي للعلامـة، دون أن تنسـى دور المرجِـع (Referent) والمؤوِّل (Interpreter)[1].

وجـرت محـاولات عـدة مـن أجل جرّ انتماء السـيمياء إلى هـذا المنهج الفكري أو ذاك، لكنها استطاعت صنع خصوصية، وقدرة على التطور جعلت كثيرين يعدونها الأسـاس لكثيـر مـن المناهـج والـرؤى الفكريـة، ولعـل علاقتها مع البنيويـة في بعض وجوهها تقع في هذا المجال[2].

والتأمل يكشـف أن السـيميائية أسـوة بسـواها من العلوم، أو الاتجاهات الفكرية والنقدية فيها ثوابت ومتغيرات؛ من ثوابتها: التركيز على أن مدار اهتمامها العلامات، التي تستطيع تفسير العالم الذي تشكل تفاصيله تلك العلامات.

ومـن متغيراتهـا قدرتهـا علـى التكيّـف مـع الحقـل (Field)والمـؤول، والطرائق الإجرائية كما يلي:

– على مستوى الحقل الذي تشتغل عليه، تنبه المشتغلون إلى أن السيمياء تمتلك مرونة كبيرة لتناسـبه، ومن هنا نشـأ لدينا نتيجة جهود متلاحقة: السـيميائيات السـردية (narrative semiotic)، والسـيميائيات الثقافيـة (Cultural Semiotic)، وسـيميائيات

(1) انظر: المناصرة– عز الدين (المراجع والمقدم)، (تمهيد: شعرية المنهج السيميائي: في اللغة، الثقافة، والشعر "قراءة مونتاجية") مجموعة من المؤلفين، السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، دار مجدلاوي، عمان، 2008، ط1، ص ص 34–36.

(2) يرى ميجان الرويلي وسعد البازعي في: دليل الناقد الأدبي، ص 178، أن السيميائية تنتمي إلى "البنيوية، إذ البنيوية نفسها منهج منتظم لدراسة الأنظمة الإشارية المختلفة في الثقافة العامة، ولهذا يصعب التمييز بين الحقلين تمييزاً مانعاً، بل إن المهتمين بالبنيوية والسيميولوجيا راوحوا دائماً بين أولوية الواحدة على الأخرى". فالمنهج السيميائي جاء مكملاً لحركات النقد السابقة لا سيما البنيوية، كما يرى: إيغلتون– تيري، نظرية الأدب، تر: ثائر ديب، وزارة الثقافة، دمشق، 1995، ص 175 "ومع أعمال مدرسة براغ، يصبح مصطلح "البنيوية" مختلطاً إلى هذا الحد أو ذاك مع كلمة "السيميائية" Semiotics حيث السيميائية، أو"علم الدلالة" هي الدراسة المنظمة للأدلة، وهذا ما يفعله البنيويون في الواقع".

التلقي (Reception Semiotic)، والسيميائيات الخطابية (Discursive Semiotic) دون أن يعني ذلك فقدانها لأسسها المكونة.

– على مستوى المؤوِّل والطرائق الإجرائية، لنقل السيمياء من التنظير إلى التطبيق، وجد المتابعون أنها تتغير في ضوء محاولة الإفادة من العلوم الأخرى، واهتمام كل مشتغل، وثقافته، وفهمه للسيمياء التي أفرزت أعلاماً، استطاع قسم منهم بناء خصوصية في هذا المجال، أو ذاك، فصار هناك تداخل بين العَلَم والاتجاه، حيث استطاع نفر منهم إضافة الكثير لأسس السيمياء وصار لدينا الآتي: سيميائية (سوسير) الدلالية (Semantic Semiotic)، سيميائية (غريماس) السردية (Narrative Semiotic)، سيميائية (موريس) التداولية (Pragmatic Semiotic).

وبناء على ما سبق؛ فقد يبدو النظر في تاريخ السيمياء رهين تقاطع كل من الأعلام والاتجاهات، فالأعلام كتبوا ما كتبوه، ليؤسّسوا اتجاهات عَمِلَ عليها آخرون وبنوا عليها، مما أدَّى إلى وسم اتجاه ما بعَلَم ما، وغدا هذا الفهم للسيمياء مرتهناً به، وقد استوعبه آخرون، وقاموا بتطويره، ومنْحِه الكثير من الثراء، لكنه لم يخرج عن جهودهم المبكرة الأولى.

كما شكَّل الجهد الذي بذله الأعلام محطة رئيسية في تاريخ هذا الاتجاه، لينمو بعد ذلك ويتلامح، كما هو الشأن في معظم ما كتب في النقد الحديث الذي حاول أن يبتعد عن المعيارية، ميمِّماً وجهته نحو التحليلية التي يضيف إليها اللاحقون، سواء أكانوا من الثقافة نفسها، أم من الثقافات التي تُنَقل إليها، أو تُحَوَّل[1].

ومن هنا فقد قال المهتمون: إنه لا توجد بنيوية واحدة، بل بنيويات[2]، ولا توجد تفكيكية، بل تفكيكيات[3]، ولا توجد سيميائية، بل سيميائيات[4]، تأكيداً على أن إمكانية الإضافة كبيرة من الأعلام الذين يقومون بتطبيق المناهج النقدية على النصوص.

---

(1) انظر: البنكي– محمد أحمد، دريدا عربياً، قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي، ص ص 33–39 ثمة رصد لآراء تفضل التحويل بديلاً عن الترجمة، مثلما مال آخرون إلى الحديث عن التعريب، وآخرون عن الترجمة.

(2) انظر: جاكسون– ليونارد، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، 2008، ط2، ص ص 30–32.

(3) انظر: البنكي– محمد أحمد، دريدا عربياً، قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي، ص 90.

(4) المناصرة– عز الدين (المراجع والمقدم)، (تمهيد: شعرية المنهج السيميائي: في اللغة، الثقافة، والشعر "قراءة مونتاجية")، مجموعة من المؤلفين، السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ، تر: رشيد بن مالك،، ص ص 34–36.

فكلما ظهر اتجاه نقدي شاع الاختلاف في مدى قدرته المنهجية التي يمكنها أن تجعل من أدائه مشروعاً قائماً بذاته من حيث التنظير المقنع والتطبيق الممكن، ولعل ما حصل مع عدد من الأعلام المؤثرين دليل على ذلك، فقد أصيبوا بالسأم من الوصفية (Descriptive) التي أرستْها البنيوية، فهذا (رولان بارت Rolan Barth) يؤكد أنَّ "صَرْحَ اللسانيات أصبح يتفكك اليوم، من شدةِ الشبع أو من شدة الجوع، وهذا التقويض للسانيات، هو ما أدعوه من جهتي سيميولوجيا"[1].

بيد أن تأمل ماذهب إليه (بارت) يكشف أن هذا الصرح لايزال يتفرع عنه الكثير من الرؤى الفكرية والنقدية التي تشي بأهميته وقدرته العالية على النمو والاستمرارية.

وقد شكّل اكتفاءُ المناهج النقدية الحديثة بالتوصيف أحد جوانب الاعتراض عليها، لكن تلك المناهج، من جهة أخرى، حملت رؤى فلسفية منحت المشتغل فيها حرية كبيرة في الحركة حين يتعمّق بها؛ فيضيف إليها الكثير، ولعل هذا هو ما يفسر البون الشاسع بين الجانبين النظري والتطبيقي؛ فالحضور النظري، شكّل في جلّه تمارين على فهم هذا المنهج أو ذاك، لكن تحويل هذه الحصيلة النظرية إلى معطيات تطبيقية احتاج إلى إجراءات نقدية فاعلة من قبل أعلام النقد الذين أثْرَوه.

ثانياً: أعلام في تاريخ السيمياء

يروم الحديث عن الأعلام الفاعلين في تاريخ السيمياء رصد التحولات المفصلية التي حدثت في تاريخها المعاصر، حيث صارت أحد الموالج الرئيسية لمقاربة متغيرات العالم، وقد قام بهذه التحولات أعلام فاعلون.

وما حدث في تاريخ السيمياء يجعل الحيرة تصيب من "يروم اجتراح تاريخ السيميائيات المعاصرة في ضبط إحداثيات هذه المعرفة التي تضرب بجذورها في العهود الغابرة، وترتسم معالمها البيانية في العصر الحديث، فمن أي نقطة بدءٍ ينطلق خطها البياني في هذا التاريخ؟ وإلى أي نقطة وصول ينتهي مسارها؟"[2].

تلخص حيرة هذا الرأي إشكالية الحديث عن تاريخ السيمياء بصفتها معرفة ضاربة الجذور في تاريخ الفكر الإنساني، ومن هنا فإنَّ الحديث عن الأعلام السيميائيين ليس

(1) إبراهيم–عبدالله، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1996، ط2، ص ص 21–22.

(2) يوسف– أحمد، تأثير الجلوسيماتيا في النظرية السيميائية، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 38، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير – مارس، 2010، ص 231.

بحديث عن جهود متباينة؛ بل متكاملة اختطّ كل منها خطاً خاصاً به، ضمن أرضية فلسفية واسعة، وهي محاولات تشبه سباق التتابع، وفي كثير من تجلياتها جهود متوازية، ركز كل منها على رؤية ما عبّرت عن فهمه، ودوره، ورؤاه، فانتبه إلى هذا الجانب أو ذاك، دون أن تفوتنا الإشارة إلى أن عدداً منهم شارك في اتجاهات نقدية أخرى سابقة، أو موازية، أو لاحقة للسيميائية.

وسنتوقف عند مجموعة من الأعلام الذين تركوا بصمة في تاريخها، وكانوا سبباً في إحداث نقلات نوعية في جوهرها[1].

سوسير

عاش (فرديناند دي سوسير)[2] في مرحلة موازية لحياة (بيرس)، لكنهما لم يلتقيا، ولم يتعرفا إلى تجربة كل منهما، وعاش كل منهما في قارّة[3]، وهما يُعَدَّان أهمَّ عَلَمَيْن في تأسيس السيميائية.

بيدَ أن بعض النقاد لايسلمون بدور (سوسير) الرئيسي، حيث انتقد (جاكسون) المتحمسين له بالقول: "كأن سوسور هو الذي أسس التوصيف الألسنيّ التزامنيّ، وكأنّ هذا التوصيف كان ضرباً من الفكرة الفلسفية لديه؛ والحقيقة أنَّ هذا التوصيف كان على الدوام قوام التعليم الغربيّ، آخذاً شكل القواعد"[4].

وعلى الرغم من ذلك كان (سوسير) واضحاً في خياراته المنهجية، وفي دعوته إلى "تبني المنهج الوصفي، الذي لا تحتكم قوانينه إلى العوامل التاريخية أو الخارجية الأخرى، بل إن اللغة في إطار هذا المنهج يجب أن تدرس في ذاتها ومن أجل ذاتها،

---

(1) لا بد من الإشارة إلى أن الحديث هاهنا لن يستوفي الأعلام المؤثرين جميعاً، ونأمل ألا يستغرب القارئ غياب اسم (جاكبسون) و(بارت)، وسواهم، فقد حاولنا الوقوف عند الأعلام الذين كرسوا جلّ وقتهم للسيمياء.

(2) ورد في كتاب: كوبلي- بول، ليتسا جانز، علم العلامات، تر: جمال الجزيري، ص 14 "ولد سوسير في عائلة أكاديمية بجنيف عام 1857، عندما بلغ التاسعة عشرة من عمره، ذهب لدراسة اللغات في جامعة ليبزيج، حيث نشر فيها بعد عامين بحثاً شهيراً عن "النظم البدائية للأصوات المتحركة في اللغات الهند أوربية" بعد أن حصل على رسالته، ذهب سوسير إلى المدرسة العملية للدراسات العليا في باريس، حيث سيقوم بتدريس اللغة السنسكريتية، واللغة الغوطية، واللغة الألمانية العليا القديمة".

(3) زويست- آرت فان، (التأويل والعلاماتية)، العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة: منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2004، ط1، ص 33.

(4) جاكسون- ليونارد، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ديب، ص 99.

إنها منهجٌ مغلقٌ لا يؤمن بما يقع خارجه من عوامل"[1].

ولا يحبذ بعض الباحثين اعتبار تنبّه (سوسير) للسيميائية في كتابه (محاضرات في الألسنية العامة)[2]، تأصيلًا لها، ولا سيما أن هذا التنبه كان بعد رحيله و"غالباً ما تخفق الشروح الحديثة للنظرية "السوسورية" في ملاحظة أن محاضرات سوسور قد ألقيت في الأصل من قبل فقيه لغة (فيلولوجيّ)، على طلاب فقه اللغة (الفيلولوجيا)، فسوسور كان يقدم لهؤلاء الطلاب إطاراً لدراسة اللغات ضمنه أكثر نظاميةً وأشدَّ تلبيةً لحاجاتهم الفكرية. أما "فلسفة" سوسور فلم تكن في هذه المرحلة أكثر من تناولٍ لمنهجية الألسنية، أو نقاشٍ لها"[3].

وأياً كانت مقاصد (سوسير) عندما ألقى محاضراته؛ فإنه نظَّر بصورة أو بأخرى لجذور السيمياء الحديثة، وباتت هذه المحاضرات الأكثر انتشاراً آنئذ؛ أما التساؤلات التي أثارها؛ فقد كانت اللبنة الأساسية في دأب من تلاه من الباحثين في إيجاد التفسيرات والتحقق من جوهر السيمياء، ومن أمثلة طروحاته المهيئة للعلامة السيميائية تشبيهه مفردات اللغة بلعبة الشطرنج من جهة أننا نواجه أنظمة القيم بتحريك الأحجار بشكل مقصود وليس اعتباطياً، فاللعبة تفترض حقيقة أن تتعلم؛ كيف تلعب الشطرنج، وما الهدف من اللعبة، وما هي الأوزان النسبية للأحجار، وما هي التحركات المشروعة؟[4].

إن تمثيل (سوسير) لاستعمال اللغة بتحريك أحجار الشطرنج يختصر على المتتبع أن سيميائيات (سوسير) وُسِمَتْ بسيميائيات الدلالة (Signification Semiotics)، لأنه اهتم باللسانيات (Linguistics) التي تركز على "آليات الدلالة داخل هذه العلامات وداخل أنساقها السيميائية"[5]. حيث أكد أن النتائج التي ستتوصل إليها السيمياء أو (علم الدلائل)، كما يسميها، سوف تطبق على اللسانيات، ذلك أنّ هذه الأخيرة ما هي إلا جزء من علم العلامات.. أما أهميتها فتعود إلى كونها ألحقت بعلم الدلائل

(1) انظر: الأحمر- فيصل، معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، بيروت، 2010، ط1، ص 40.

(2) دي سوسير- فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي، ومجيد النصر، مرجع سبق ذكره.

(3) جاكسون- ليونارد، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ديب، ص 101.

(4) Holdcroft- David, Saussure Signs, System and Arbitrariness, CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS, New York, First edition, 1991, p78.

(5) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 71.

(Semantics[1])، إضافة إلى التركيز على أن العلامات تستحضر من خلال عمليات التبسيط إلى مكوناتها الأولية مع إيجاد مجموعات من الروابط تجعلها قابلة للإدراك و"هذا له مايبرره في إواليات الإدراك ذاتها، فعالم الأشياء لا يلج إلى الذاكرة على شكل "أشياء" معزولة لا رابط بينها، بل يتسلل إليها عبر النماذج المنظمة لهذه الأشياء في أقسام متباينة. فعلى الرغم من أن ما نراه هو شيء مخصوص فعلي وواقعي، فإن ما يتسرب إلى الذهن هو فكرة عن الشيء وليس الشيء ذاته"[2].

وهذا ما عناه (سوسير) بأن أصل العلامة اللغوية هو: اللسان بمرجعيته الاجتماعية رغم اعتباطية العلامة؛ حيث أكد أهمية "الأصل الاجتماعي للسان، إذ عدّه خزاناً للتعاقدات والاتفاقات (convention) المتبنَّاة من طرف المجتمع. كما أوضح سوسير هذا التصور أيضاً في المستوى التحليلي (Analysis Level) حين رأى أن اللسان يتكوّن من وحدات صغرى هي العلامات، وأن كل علامة تتكوَّن من دال ومدلول يقوم ارتباطهما على مبدأ الاعتباطية (arbitrary)، الذي هو مبدأ اجتماعي بالدرجة الأولى"[3].

وقد خاض التجربة كل من (جاكبسون) و(بارت)، لأن العلاقات التي تنتج عن تحليل العلامة على محوريْ النظام والتركيب تؤدي إلى تشكل العلامة بشكلها ودلالتها "فمن الممكن أن يوضع لبعض الأنظمة السيميائية تخطيط يتعلق بالمركّب التعبيري وبالنظام، لا يسيء إلى الوحدات التعبيرية ولا إلى مجموعة صيغها الصرفية المتنوّعة"[4].

ويمكن حصر أهم أفكار (سوسير) حول السيمياء؛ بكون العلامة اللغوية لاتقرن شيئاً باسم، وإنما تقرن مفهوماً بصورة سمعية. والمقصود بالصورة السمعية

---

(1) انظر: الأحمر- فيصل، معجم السيميائيات، ص ص 42-45، حيث حاول (بارت) قلب مقولة (سوسير) هذه، رغم أنه احتفظ بمفاهيم ومصطلحات كثيرة لـ "(سوسير)" خاصة مصطلحي الدال والمدلول، اللذيْن فضّلهما على مصطلحي التعبير والمحتوى لـ (هلمسليف) كما احتفظ بمفهوم ثنائية اللغة والكلام.. إلا أنه قلب مقولة أن اللسانيات جزء من السيمياء.. فاللسانيات بنظره أهم بكثير من السيمياء لأنها الأساس في تكوينها وتشكيل قواعدها، وهو الرأي نفسه الذي ذهبت إليه (جوليا كريستيفا) التي تبنت في منطلقاتها المبادئ الألسنية.

(2) بنكراد- سعيد، السيميائيات: النشأة والموضوع، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس2007، ص 26.

(3) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 66.

(4) إبراهيم- عبدالله، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص 103.

ليس الصوت المسموع، أي الجانب المادي، بل الأثر النفسي الذي يتركه الصوت في المتلقي. ومن جهة أخرى فإن اللغة منظومة من العلامات تعبر عن فكر ما. أما الكلام، فهو عمل فردي للإرادة والعقل. كما ينظر إلى أن الدليل يفهم داخل تصور عام، وهو النظام (System)، الذي يتضمن مفهوم الكل والعلاقة، حيث لا يمكن فهم وظيفة الأجزاء، إلا في علاقتها الاختلافية مع الكل[1].

ولعل أهم ما نبّه إليه (سوسير) هو أن السيميائية منهج شامل للغويات، وجميع أنواع التعبير، وجعَلها أصلاً للسانيات؛ "الإشارة، في النموذج السوسوري، هي الكلّ الذي ينتج من الجمع بين الدالّ والمدلول"[2]، فكان ذلك مصدر إشارات تعجب وتساؤل لدى من عاصره من النقاد، وتبعه، وهو ما أثار الكثير من المقالات والأبحاث النقدية التي حاولت تفسير تنبه (سوسير) لهذه الأهمية، وشرح حقيقة شمولها، أو اقتصارها على أن تكون فرعاً من اللسانيات، كما حصل مع (بارت) الذي اندفع إلى "قلب المعادلة التي جاء بها سوسير ليؤكد أن السيميولوجيا كيفما كانت قوتها وشموليتها لا يمكن أن تكون سوى جزء من اللسانيات لا العكس، كما تصور سوسير، فالأساس في الوجود هو اللسان ولن يكون في مقدورنا أن نقوم بأي شيء خارج اللسان"[3].

ومن المهم الإشارة إلى أن العلامة في مفهومها لدى (سوسير) و(بارت) لا تفارق انتماءها اللغوي اللساني؛ بسبب تركيزهما على البنية التركيبية للجملة والمستوى السطحي، وبالتالي فإن السيميائية لديهما دلالية "تقوم على العلاقة بين العلامة والدالّ والمدلول، فالعلامة مكوّنة من دال ومدلول، يشكل صعيدُ الدَّوَالِّ صعيدَ العبارة ويشكل صعيد المدلولات صعيد المحتوى"[4].

في حين أن (بيرس) أضاف للدال والمدلول البعد الثالث (المرجع)، فانتقلت السيمياء لدراسة العلامة بصفتها علامة ثقافية، لكن معظم طروحاته بقيت ذات طابع نظري، إلى أن جاء (غريماس) وفريقه؛ فطوروا مقولات (بيرس) و(سوسير) معاً.

---

(1) المناصرة- عز الدين (المراجع والمقدم)، (تمهيد: شعرية المنهج السيميائي: في اللغة، الثقافة، والشعر "قراءة مونتاجية") مجموعة من المؤلفين، السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، ص ص 33-34.

(2) تشاندلِر- دانيال، أسس السيميائية، تر: طلال وهبه، ص 48.

(3) بنكراد- سعيد، السيميائيات: النشأة والموضوع، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس2007، ص 29.

(4) إبراهيم- عبدالله، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص 97.

بيرس

يعدّ بعض المهتمين (بيرس)[1] أول من أسَّس للسيميائية بصفتها منهجاً يمتلك أحقية الظهور في الساحة النقدية، وعندما نتعرف إلى المحيط الذي ينتمي إليه، ومنبته العلمي، والاتجاه النقدي الذي برزت فيه سيميائيته نصبح قادرين على التعرف إلى العبارات السيميائية، والنظريات قبل أن تنسب إليه، لأن (بيرس) أراد أن "تطبق نظريته العامة على كل العلامات. وقد كان يحتاج، في هذا العزم، إلى متصورات جديدة، وقد ابتدع من أجلها كلمات من منبته. وإننا لنعرف من استعمال هذه الكلمات العلاماتي البيرسي... "[2].

يلاحظ المتتبع لإنتاج (بيرس) السيميائي أنه توسع في دراسة العلامة انطلاقاً من منشئها السيميائي إلى انفتاحها على كل الثقافات ليتسع مفهومها للكون كله، ولعل هذا هو الذي جعل اسمه يرتبط بالسيمياء التداولية، إذ إن هناك من رأى "أن: التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات وهذا تعريف واسع يتعدى المجال اللساني (إلى السيميائي)، والمجال الإنساني (إلى الحيواني والآلي)"[3]. وقد تقاطعت طروحاتها مع طروحات (بيرس) من جهة "تصورها الشمولي والدينامي للعلامة، إذ تعدها كياناً ثلاثياً تتفاعل داخله العناصر التركيبية والدلالية

---

(1) بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2005، ط1، ص ص 14-15 يشير إلى أنه "في العاشر من سبتمبر 1839 ولد شارل سندرس بورس في كامبردج في ولاية ماساشوسيتس في الولايات المتحدة الأمريكية من أب عالم عده البعض من ألمع علماء أمريكا في القرن التاسع عشر، فلقد كان بنجمان بورس أستاذاً كبيراً للرياضيات لمدة ثلاثين سنة في جامعة هارفارد... وفي سن السادسة عشرة من عمره أدخله والده إلى جامعة هارفارد لكي يتابع دروساً في الرياضيات والفيزياء، ثم الكيمياء...".
كما بين اهتمامه بالرياضيات الذي يصبح مسوَّغاً عندما نتعرف سيرته هذه، إضافة إلى دراسته المنطق والفلسفة مما جعله يكتب مقالاته الأولى في السيميائية بصورة مهمة وحاسمة في تاريخ السيمياء، لكن لم يصدر له في السيمياء مجلدات أثناء حياته، وما وصلنا كان مجموعة من المقالات والكتابات غير المنشورة "جمعها محررو أعماله في ثمانية مجلدات في الفترة "1931- 1958) وكان معظمها لم ينشر بعد في هذه الكتابات".

(2) زويست- آرت فان، (التأويل والعلاماتية)، العلاماتية وعلم النص، إعداد وترجمة: منذر عياشي، ص 35.

(3) بعلي - حفناوي، التداولية.. البراغماتية الجديدة، خطاب ما بعد الحداثة، **مجلة اللغة والأدب**، العدد 17، قسم اللغة العربية وآدابها- كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، الجزائر، جانفي، 2006، ص 53.

والتداولية في إطار سيرورة دائمة تسمى السيموزيس (Semiosis)"[1]. ذاهباً إلى أن "العلامة أو المصورة Representamen، هي شيء ما ينوب عن شخص ما عن شيء ما، من جهة ما، وبصفة ما. فهي توجه لشخص ما، بمعنى أنها تخلق في عقل ذلك الشخص علامة معادلة، أو ربما علامة أكثر تطوراً، وهذه العلامة التي تخلقها أسميها مفسّرة – Interpretant، للعلامة الأولى. أي أن العلامة تنوب عن شيء ما، وهذا الشيء هو موضوعتها، Object. وهي لا تنوب عن تلك الموضوعة من كل الوجهات، بل تنوب عنها بالرجوع إلى نوع من الفِكر التي سميتها ركيزة – ground المصورة"[2].

وهذا التصور للعلامة المتشعبة؛ يجعلها تزداد تشعباً كلما أمعن الناقد في تتبع مسارها منذ الإرسال حتى حصول التلقي، الذي سيؤدي إلى عملية التوالد والتأويل (Hermeneutics) داخل عالم من الممكنات في حالة متفجرة من الدلالات؛ فهناك "إذاً عملية تأويل تتم انطلاقاً من وجود عالم واقعي نستطيع انطلاقاً منه تحديد سلسلة من العوالم الممكنة الوجود انطلاقاً من العالم الأول"[3].

وهذا الطرح البيرسي هو ما يميز تجربته العلاماتية، فالسلسلة (String) التي تتكون أثناء عملية إرسال العلامة إلى متلقيها هي وليدة العلامة المتشكلة، التي خضعت لتفسير، ومن ثم لقراءة جديدة، وسلسلة متولدة أخرى جديدة أيضاً؛ مما يجعل هذه العلامة "علامة أخرى، وكل علامة لها بالفعل أو بالقوة قاعدة تفسيرية علامة أخرى، يمكن على أساسها فهم العلامة باعتبارها نوعاً من الفيض الصادر عن موضعتها. وتفترض العلامة معرفة مسبقة بالموضوعة، كيما تقوم بتوصيل معلومات إضافية بصددها"[4].

ولن نستغرب كيف جعل العلامة، والتفسيرات، وصور تلقي التفسيرات المتوالدة علامة أيضاً، إنْ علمنا أن ذرائعية (بيرس) (Pragmatism) تسلّم "بضرورة ربط التفكير

(1) المرابط– عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 79.

(2) بيرس، تشارلز سوندرس، تضعيف العلامات، تر: فريال جبوري غزول، في كتاب أنظمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، مدخل إلى السيميوطيقا، إشراف سيزا قاسم ونصر حامد أبو زيد، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986، ص 138.

(3) بنكراد– سعيد، النص السردي، نحو سميائيات للإيديولوجيا، دار الأمان، الرباط، 1996، ط1، ص 29.

(4) المناصرة– عز الدين (المراجع والمقدم)، (تمهيد: شعرية المنهج السيميائي: في اللغة، الثقافة، والشعر "قراءة مونتاجية") مجموعة من المؤلفين، السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، ص ص 31–32.

بالعلامات، وتنظر إلى التفكير على أنه علامة.."[1]. مسبغاً رؤيته على الكون كله، إذ اعتبر أن الكون علامة، والفكر علامة، وتفسير العلامة علامة.

وهذه الطريقة في الربط بين التفكير والعلامة جاءت من كون سيميائية (بيرس) تستند في جوانب منها إلى الفلسفة التي كانت محط اهتمامه في مراحل حياته المتقدمة؛ مما جعله يفكر بالطريقة الفلسفية ذاتها بكل أنواع العلامة، وتأويلاتها، وتقسيماتها، فكان (بيرس) أوَّل من تعمَّق في النظرية السيميائية ومكوناتها فلسفياً، غير مقتصرٍ في تفسير السيميائية على اللسانيات واللغة، قاصداً في تنظيره مكونات العلامة السيميائية ذاتها ومسبباتها الثقافية والإيديولوجية، واضعاً العلامة في "سياق فلسفي تفسيري مستوحى من كانط وهيغل يسمى "نظرية المقولات" (Theorie des cathegories) وهي عبارة عن ظاهراتية خاصة ذات مفاهيم ومصطلحات مخصوصة ومبتكرة"[2].

وطوّر نظرته الفلسفية هذه عندما تأثر بالمنطقي (دومركان) فاستعاض عن مبدأ المقولات بمبدأ العلاقات.. ثم وصل لمرحلة كانت رؤيته واسعة لتشمل الكون كله وما يحتويه متأثراً بالطبيعانيين والنظرية التطورية الداروينية[3].

وهو ما أوصله إلى التعريف بالعلاقة الثالوثية (triad) الأشهر وهو "العلامة أو الممثل هو الأولاني الذي ينوب عن الثانياني الذي يسمى الموضوع. والممثل يحدد الثالثاني الذي يدعى المؤول"[4]. وكان ذلك الثالوث نتيجة تفكير (بيرس) الشمولي بكل أنواع العلوم، وتحويل قراءاته إلى تمحيص وتفكير وتحليل، والخروج بنظريات تخدم المنهج السيميائي، وإيجاد مفاهيم سيميائية لكل موجودات المحيط، من خلال الوصول إلى معنى الكلمات والمفاهيم بطريقة منهجية؛ فاقترح الهدم والبناء (Construction) داخل النص، ومن ثم تحويل البنيات المقتطعة إلى علامات، منطلقاً من فرضيتيْ الاتصال (Conjunction)، والانقطاع (disjunction)، فالاتصال في ثالوثه العلاماتي يقوم "بافتراض إنشاء علاقات وترابطات واتصالات، وهذه المفاهيم الثلاثة أبانت لنا عن أهم ما تميزت به نظريته، وهي فلسفته الظاهراتية، وتتلخص في كون

(1) يوسف- أحمد، السيميائيات الواصفة، المنطق السيميائي وجبر العلامات، الدار العربية للعلوم ناشرون، المركز الثقافي العربي، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2005، ص 9.

(2) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 80.

(3) انظر: الأحمر- فيصل، معجم السيميائيات، ص ص 48-51.

(4) يوسف- أحمد، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، الدار العربية للعلوم ناشرون، المركز الثقافي العربي، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2005، ط1، ص 56.

الأشياء تبدأ بالمجرد، وتنتقل إلى المحسوس"[1].

أما فرضيته في الانقطاع؛ فقد تمثلت بمقولات منها مقولة الأولانية (Firstness)؛ وهي الصفر الذي يمثل العدم، إذ لا وجود لداخل وخارج وقانون، إنما إمكانيات غير محدودة وهي "كينونة الإمكان الكيفي الموجَب"[2]، أو ما قيل إنه "الإحساس الغامض الذي يستحوذ علينا ولا نستطيع تحديد مصدره يشكل في عرف بيرس علامة نوعية"[3]. ومن ثم مقولة الثانيانية (Secondness)؛ ويمكن التعبير عنها بأنها الملامح والمعالم المشكلة لمفهوم الأولانية، وقد عرف (بيرس) الثانيانية بالقول: إنها "نمط وجود الشيء كما هو في علاقته بثان دونما اعتبار لثالث. إنها تعين وجود الواقعة الفردية"[4]. وفيها ننتقل من الإمكان إلى التحقق (Verification)، أما الثالثانية (Thirdness) فهي مقولة القانون والضرورة؛ أي أنها تسويغ للأولانية والثانيانية والرابط بينهما، ممثلة بذلك "مقولة الوعي الذي يتدخل ليربط بين الشيء كإمكان كيفي مجرد وبين تحققه الفعلي في عالم الموجودات والموضوعات. إنها الفكر أو القانون الذي يربط بين الأولانية والثانيانية"[5].

فاقتران العلامة بكل مرحلة من الثلاثية السابقة يوجد عناصر التدلال وهي: "الممثل، الموضوع، والمؤوِّل"[6]. وهذه العناصر هي ما كوّن المثلث السيميائي (Semiotic Triangle) الآتي الذي يشكل السيرورة السيميائية (Unlimited Semiotic):

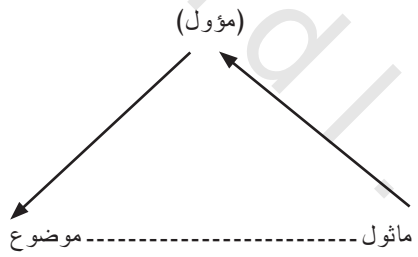

"الخط المتقطع يشير إلى أن العلاقة بين الماثول والموضع ليست مباشرة بل تمر عبر المؤول"[7].

(1) الأحمر- فيصل، معجم السيميائيات، ص 51.
(2) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 80.
(3) بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 111.
(4) المرجع نفسه، ص 61.
(5) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 80.
(6) الأحمر- فيصل، معجم السيميائيات، ص 53.
(7) بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 77.

ويشترط (بيرس) لتتم عملية التواصل أن يكون المرسل (Addresser) والمرسل إليه (Addressee) على معرفة سابقة بموضوع ما، حتى تتم عملية الحوار، ويمكننا القول: إنه الموضوع الذي لا يتصل بصلة مباشرة بالدال، ويحتاج للتأويل، والموضوع المباشر هو الموضوع الماثل أمام أعيننا، فإحالتنا على وجوده مباشرة، وله ثلاث علامات؛ – علامة أيقونية: وهي بتعريف (بيرس) "علامة تحيل على الموضوع بموجب الخصائص التي يمتلكها هذا الموضوع سواء كان هذا الموضوع موجوداً أو غير موجود"[1]. من مثل اللوحة لكن دون وجود تعليق، أو الرسوم البيانية. و – الأمارة أو المؤشر (Seme) حيث: "يعتبر المؤشر أو السيمة SEME من الجهة الدليلية المقولية، ممثلاً ينهض طابعه التمثيلي على صفته الثانية الفردية. وهو لا يثبت أصالته إلا عندما تكون الثانيانية **علاقة وجودية**، أما عندما تكون **إحالة** فالمؤشر يكون **منحلاً**"[2]. ولكن هناك من عبر عنه أنه "علامة لها رابط فيزيقي مع الموضوع الذي تحيل عليه، وهو حالة الأصبع الذي يشير إلى موضوع ما، وحالة دوارة الهواء المحددة لاتجاه الريح..."[3].

وكلا التعريفين ملائمان، لكن كل واحد منهما تناول المؤشر أو الأمارة أو الدليل من جهة مغايرة، فهو مثل الأيقونة مؤشر جزئي كالاسم والضمير الدال على الفرد، لكنه ليس فرداً، وهو كالثانيانية يرتبط دينامياً مع الموضوع الفردي من جهة، وبذاكرة الشخص، ومعانيه من جهة أخرى. أما الرمز (Symbol) وفقاً لهذه الرؤية فـ "ينحدر من طبيعة عامة ومجردة، إنه ينتمي إلى مقولة الثالثانية، فهو لا يستند إلى حدث ولا إلى نوعيات أو أحاسيس لكي يوجد، بل يكتفي بالإشارة إلى القانون والضرورة"[4].

إن تأثير الفلسفة الظاهراتية على أداء (بيرس) السيميائي هيأ له ضرورة التفكير في المستويين: الظاهري والباطني للعلامة، وهو ما "سيقود إلى التمييز بين موضوعين: أحدهما داخلي والثاني خارجي، وذلك في علاقتهما بفعل التمثيل"[5]. ولتوضيح الفرق

(1) المرجع نفسه، ص 116.

(2) الحداوي– طائع، سيميائيات التأويل، الإنتاج ومنطق الدلائل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2006، ط1، ص 314.

(3) إيكو– أمبرتو، العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، مر: سعيد الغانمي، كلمة والمركز الثقافي العربي، أبو ظبي، الدار البيضاء، بيروت، 2007، ط1، ص 91.

(4) بنكراد– سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 121.

(5) المرجع نفسه، ص 83.

بينهما يحدد (بيرس) العماد (Fondement) أداة لذلك و"هو طريقة معينة في التمثيل. وبعبارة أخرى، إنه انتقاء خاص يتم وفق وجهة نظر معينة"[1].

ولكن هذه الفلسفة التي أمسك بأطرافها (بيرس)، ومدت سيميائيته بنسغ التأويل لم ترَ ضرورة لدراسة نفسية الأنا الباثة للنص مما جعل "اعتراض بيرس على علم النفس هو السبب غير المباشر الذي دفعه إلى نوع من السوسيولوجيا يرتبط بالسيميوطيقا، كما ترتبط الذرائعية بالنقد الديكارتي، ولأن نظرية بيرس ليست نظرية نفسية، ولأنها ترفض فاعل الخطاب (Le sujet du discours)، فإنها نظرية اجتماعية"[2].

ولذا كان لـ (بيرس) الفضل الكبير في مدّ العلامة بكل هذه القدرة على التوسع في كل تفاصيل الحياة الخاصة والعامة، ولتكون نظرياته المدخل المنهجي للنقاد الذين تلوه أمثال (شارل موريس) الذي استوحى من "سيمياء بيرس وذهب بها مذهبيْن: مذهب سلوكي متوارَث عن لسانيات بلومفيلد، ومذهب إبستمولوجي يبحث عن موقع مهيمن للسيمياء داخل جميع العلوم"[3]. ولكن هذا لم يمنع النقد من أن ينتقد سيرة رؤاه النقدية وإمكانية تحولها إلى إجراء نقدي، "والاختلاف الجاري اليوم حول تطبيقات سيميائية (بورس) يعود إلى أنه لم يقدم لنا نموذجاً عملياً يثبت به صحة نظريته وفعاليتها، والأرجح أن نظريته اليوم تصلح للمجال البصري أكثر"[4]، بخاصة في ضوء استنادها على الثلاثية المكرسة: أيقون (Econ)، مؤشر(index)، رمز (Symbol). ويلحظ أن تقاطعاً كبيراً يمكن أن نلمسه بين التعدد العلاماتي عند بيرس والتوالد الدلالي عند دريدا.

ولا بد من أن نسأل من أخذ على بيرس عدم تقديمه نماذج تطبيقية: هل قدمت الاتجاهات النقدية الأخرى نماذج تطبيقية في بداياتها؟

غريماس

عايش (غريماس Algirdas J. Greimas)مرحلة بحثية سيميائية مغايرة لتلك التي عاصرها كل من (بيرس) و(سوسير)؛ وركز اهتمامه على الأشكال الداخلية لدلالات

(1) المرجع نفسه، ص 84.

(2) دولودال- جيرار، بالتعاون مع: جوويل ريطوري، السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمن بو علي، دار الحوار، اللاذقية، 2011، ط2، ص ص 46-47.

(3) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 84.

(4) الأحمر- فيصل، معجم السيميائيات، ص 57.

النصوص، واجتمع بعدد من الباحثين والنقاد، ونتج عن لقاءاتهم ما يدعى بالمدرسة الباريسية السيميائية (Paris semiotic school): "في أجواء ما بعد ثورة طلاب فرنسا الشهيرة عرفت باريس كيف تكون ملتقى تنصهر فيه الثقافات، وتتلاقح فيه الأفكار وتتحاور فيه الحضارات وتتبارى فيه الاتجاهات السيميائية، وتتناظر الفلسفات وتتكامل فيه الأسماء "دو سوسير ولوسيان جولدمان وجوليا كريستيفا وتودوروف وبارت وجريماس وراستي وجوزيف كورتيس وميشال أريفي وجون كلود كوكي وكريستيان ميتز..."""[1].

وقد استفاد (غريماس) بتوجهه نحو السيميائية، وعلومها من تنقله بين الدول والمدن (ليتوانيا وباريس والإسكندرية وتركيا)، ومن الملفت في سيرة حياته أنه تعلم الألمانية "حتى يستطيع قراءة نيتشه. وهو الذي كان مصمماً على أن يلتحق بالحقوق، ولم يكن يعرف كلمة واحدة بالفرنسية.."[2].

ومن ثم التقى بـ (رولان بارت) و(سينجوفين Charles Singevin) في الإسكندرية، وشكلوا حلقة لقراءة السيمياء استمرت سبع سنوات، وبعد عودتهم إلى باريس أتمّوا لقاءاتهم بالإضافة إلى (جاكوبسون Roman Jakobson)، و(هلمسليف Louis Hjelmslev)، و(ليفي شتراوس Claude Levi Strauss)، و(جاك لاكان Jacques Lacan) وهذا يعطي القارئ فكرة عن اختلاف التجربة لدى (غريماس) عما سبقه باتسامها بسمة عمل الفريق، وقد شارك فيما دعي بالمدرسة الباريسية، مما يعني وجود الاستقراء لما سبق من تنظير وإجراء، وتجاوز الهنات التي وقع بها السابقون، ومقاربة النظرية عبر الإجراء، وفي "هذا الفضاء المسخر للبحث الحر الخالص، استطاع في النهاية أن يتفرغ تماماً لنظريته اللغوية على النحو الذي كان يرغبه"[3].

إلا أن حرصه على وجود طريقة بحثية مختلفة؛ لم يبعده كثيراً من حيث هيئة البحث عن مكونات السيمياء السوسيرية، وانطلاقها من أرضية بنيوية، وفي كونها إجراء لدراسة النص السردي؛ يحتاج بحسب (غريماس) للتمعُّنِ في المستويين السطحي

(1) يوسف- أحمد، تأثير الجلوسيماتيا في النظرية السيميائية، **عالم الفكر**،، العدد 38، المجلد3، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس، 2010، ص 233.

(2) إينو- آن، (من السيميو لساني إلى السيميائي "مدرسة باريس")، السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، ص 159.

(3) المرجع نفسه، ص 161.

والعميق للبنيات السـردية (Narrative Structure)؛ خاصة وأن تلك البنيات "كيانات دلالية قائمة بذاتها لا تحتاج إلى معلومات خارجة عنها، لذلك فقد رأى أن الدراسـة التحليلية الدقيقة للنص إنما تتم من خلال مسـتويين، المسـتوى السـطحي والمسـتوى العميق.... كما يرى غريماس أن المعنى يقوم على أساس اختلافي، وبالتالي فتحديده لا يتم إلا بمقابلته بضده وفق علاقة ثنائية متقابلة وقد صاغ غريماس أفكاره هذه من خلال ما أسماه بالمربع السيميائي"[1].

ومن أجل أن نعطي مثالاً على هذه المنظومة الدلالية يمكننا ذكر أن تتبع مسـار حكايات الأطفال وفقاً لهذه الرؤية، وبحسب ما توصل إليه بعض الباحثين؛ أن الذين يقومون بدور البطولة غالباً ما يمتازون بصفات متقاربة، ويؤدون أدواراً متشـابهة على نحو بدت فيه تلك الحكايات كأنها اجترار للموقف، وتكرار للأحداث والسـلوكات، ذلك أن معظم تلك الحكايات لها البدايات نفسها (طفل يتيم ذكي فقير) كما أنها تملك النهايـات نفسـها يتغلـب الطفـل على خصمـه ويصبح بذلك غنياً بعدما تلقى مسـاعدة خارجيـة مـن طـرف مـا، ويمكـن تمثيـل هذه العلاقة على الشـكل الآتي وفقـاً للمربع السيميائي الغريماسي:

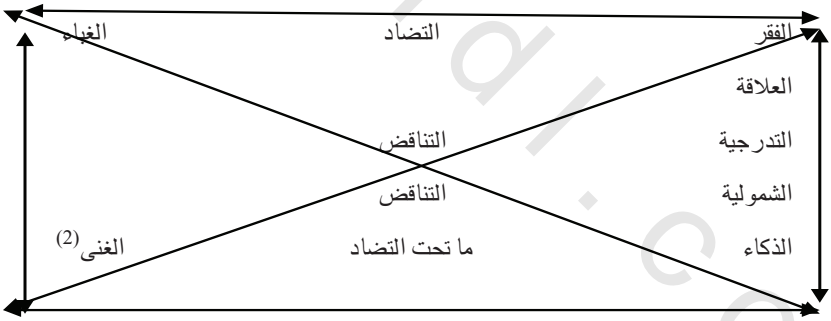

من هنا كان فهم (غريماس) "للسردية ولاشتغال النص السردي قائماً أساساً على وجـود مسـتوى محايـث محدد في بنية دلالية مجـردة (أو محور دلالي) تنتظم داخلها سلسـلة من القيم المضمونية المتمفصلة في سلسـلة من العلاقات الموجهة"[3]، وهذا

(1) الأحمر- فيصل، معجم السيميائيات، ص 229.
(2) انظر: المرجع نفسه، ص ص 232-233.
(3) بنكراد- سعيد، سيمولوجية الشخصيات السردية (رواية "الشراع والعاصفة" لحنا مينة نموذجاً)، دارمجدلاوي، عمان، 2003، ص ص 71-72.

يرتبط باقتراب (غريماس) في تحليله النصي للشخوص سردياً من مقاربة (فلاديمير بروب Vladimir Propp) في كتابه (مورفولوجيا الحكاية الخرافية)[1]، حيث "يرجع غريماس Greimas الوظائف المتعددة التي فرزها (بروب) إلى عدة مجموعات أساسية أو عوامل تدل على الفاعل ومختلف تتمات الفعل"[2]. فقطّع النص إلى بنى سيميائية وأقام "العلاقات بين ما يستمر جريماس بتسميته **"بنى سردية"** أو **"سيميائية سردية"** وبين ما درجت العادة على تسميته بنى سردية هي علاقات تاريخية بشكل خاص، فهو بدراسته للبنى السردية اكتشف جريماس **بنى سيميائية** تشتمل على الأشكال العامة لتنظيم الخطاب"[3].

انشغل (غريماس) بالتركيز على تسريد (narrativization) النص السردي في ثنائيات؛ إلى مقولة أساسية يستند إليها النص كمقولة الخير، وضدها، في محاولة للولوج إلى ما سمي بالسيميائية السردية التي تمزج الاهتمام سيميائياً بين التعبير (Expression)، والمحتوى (Content) من "ضمن خطوة أولى؛ ضبط ماهية البنية ضمن حدود العلاقة وداخل مبدأ الاختلاف، إذ من شروط الاختلاف وجود علاقة بين مفردتين تتأسس من خلالهما الدلالة، كون الدلالة مرهونة بالعلاقة، فكل مفردة منعزلة لا تحقق شرط العلاقة تعد محرومة من الدلالة، وبحسب التشاكل أو التباين تقوم العلاقة على الوصلة أو الفصلة تباعاً"[4].

تأثرت سيميائيات (غريماس) بأفكار (سوسير) بصفتها مبادئ أساسية للمنهجية البنيوية (Structuralisme) في اللغة (Language)، وتنظيره السيميائي ضمن معطيات اللغة، من خلال التحليل السردي باعتبار مستويْن دلاليْن: السطحي والعميق، وفك الشيفرات (Codes).

---

(1) بروب- فلاديمير، مورفولوجيا الحكاية الخرافية، تر: أبو بكر أحمد باقادر وأحمد عبد الرحيم، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1989. حيث صنّف (بروب) الشخصيات السردية إلى واحد وثلاثين صنفاً تبعاً للحكايات في العالم ومنطلقاتها الحكائية.

(2) تريتسسمان، ب، (الشعرية)، مفهومات في بنية النص، اللسانية، الشعرية، الأسلوبية، التناصية، تر: وائل بركات، دار معد، دمشق، 1996، ص 49.

(3) المناصرة- عز الدين (المراجع والمقدم)، (تمهيد: شعرية المنهج السيميائي: في اللغة، الثقافة، والشعر "قراءة مونتاجية") مجموعة من المؤلفين، السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، ص 49.

(4) شيباني- عبد القادر فهيم، السيميائيات العامة، أسسها ومفاهيمها، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2010، ط1، ص 84.

ويمكننا القول إن (غريماس) هو العَلَم الأشهر من ناحية قدرته على تجاوز التنظير في السيميائية، وخطوه نحو ابتكار ترسيمته السيميائية السردية والمربع السردي، اللذيْن من الصعب أن تتجاوزهما الدراسة السيميائية لنص سردي، وسعيه نحو الإجراء قفز بالسيميائية إلى التعدد في الاتجاه حتى وصل إلى حدود سيميائية الأهواء في كتبه الأخيرة، والتواصل مع العلوم الأخرى.

كورتيس

تكشف قراءة الجهود السيميائية الغربية أن معظم السيميائيين كانوا قد نشطوا في البنيوية والشكلانية والأدبية... نظراً لتكامل المناهج مفهوماتياً وتقاطعها مع بعضها بعضاً في الكثير من النواحي. ولعل تفاعل (كورتيس Joseph Courtes) مع البنيوية المتأثرة بالرؤى السوسيرية، والشكلانية الروسية (Russian formalism)، يدخل في هذا الإطار، كما أنه تأثر بمعاصريه، الذين شاركوه البحث في المجال السيميائي من أمثال (ميشيل أريفي Michel Arrive) و(شابرول C.Chabrol)و(جان كلود جيرو Jean Claoud Giroud و(جان كلود كوكي Jean Claoude Coquet) تلامذة (غريماس) في المدرسة السيميائية الباريسية، لكن (كورتيس) كان أبرزهم؛ فقد استعمل "مصطلحات أستاذه قريماس للتأكد من نجاعتها وكفايتها الإجرائية والتطبيقية.

هذا، ويتجاوز كورتيس سيمياء التواصل التي نجدها عند فرديناند دوسوسير ورولان بارت وجورج مونان وبرييطو وآخرين نحو سيميائية الدلالة...

وإذا كانت اللسانيات الوصفية تهتم بالدال من خلال رصد بنى التعبير والشكل اللغوي للمنطوق، فإنَّ السيميائية لدى كورتيس تهتم بدراسة المحتوى أو المدلول عن طريق شكلنته أي دراسة شكل محتواه"[1].

وهو ما جاء به (هلمسليف)[2] حيث إن: "نظرية اللغة في متصورات يلمسليف لا تقف عند حدود شكل التعبير، بل هي نتاج تفاعل شكلي التعبير والمحتوى وهو

(1) كورتيس- جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2007، ط1، (من مقدمة جميل حمداوي للكتاب)، ص 11.

(2) انظر: تشاندلِر- دانيال، أسس السيميائية، تر: طلال وهبه، ص ص 385-387. إذ عرفه بأنه ألسني بنيوي وشكلاني شارك في تأسيس مدرسة كوبنهاغن، ويعد من المؤسسين للسيميائيات السردية ومن أصحاب التأثير الأساسي في المدرسة الباريسية في بدايات ستينيات القرن العشرين.

ما تطلق عليه السيميائيات السردية الوظيفة السيميائية على نحو ما يشير إليه جوزيف كورتاس"[1].

بعد أن تبلورت زوايا المنهج السيميائي، وأرسيت دعائمه، وصار يتكون من اتجاهات عديدة؛ تهيأ لـ (كورتيس) الولوج في السيميائية السردية وسيميائية الخطاب فتميز في تحليله للخطاب بطريقة "تستهدف دراسة شكل المضمون للوصول إلى المعنى الذي يبنى من خلال لعبة الاختلافات والتضاد، وبهذا تتجاوز بنية الجملة إلى بنية الخطاب. وهنا لا أهمية للمؤلف وما قاله النص من محتويات مباشرة وأقوال ملفوظة وأبعاد خارجية ومرجعية، بل ما يهم السيميائي هو كيف قال النص ما قاله، أي البحث عن دال أو شكل المدلول أو المحتوى على طريقة تقسيم يلمسليف للدال والمدلول بطريقة رباعية: شكل التعبير وشكل المحتوى وجوهر التعبير وجوهر المحتوى"[2].

ويعود السبب في هذا النوع من التحليل السيميائي للخطاب إلى اللسانيات التي تهتم بإنتاج المعنى وفهمه، مما دعا (كورتيس) وزملاءه إلى إدراك القواعد الكلية للخطاب، والمواءمة بين النظرية والتطبيق "كون اللغة سلسلة من الأصوات والحركات التعبيرية؛ قابلة للوصف الدقيق الفيزيائي والفسيولوجي، فإنَّه ينظم الشكل السيميائي "شكل العلامات" الذي يترجم واقعات الوعي"[3].

وهذا ما أملى على (كورتيس) وزملائه في تأسيسهم لسيميائية الخطاب عدم غضّ الطرف عن ضرورة التفريق بين التلفظ والملفوظ اللذيْن مزج بينهما اللسانيون، وهو في الوقت ذاته الفارق الذي مايزها عن السيميائية السردية فكان ما يهمه "دراسة المحتوى من خلال التركيز على مستواه الشكلي عبر استقراء المستوى السطحي بوصف وحداته وعلاقاته صرفاً ونحواً وتركيباً، والانتقال بعد ذلك إلى تحليل المستوى العميق برصد السيمات والبنى الدلالية العميقة التي تولد كل التمظهرات الدلالية السطحية"[4].

---

(1) يوسف- أحمد، تأثير الجلوسيماتيا في النظرية السيميائية، **عالم الفكر**، العدد 38، المجلد 3، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس، 2010، ص ص 251-252.

(2) كورتيس- جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، (من مقدمة جميل حمداوي للكتاب)، ص 10.

(3) يوسف- أحمد، تأثير الجلوسيماتيا في النظرية السيميائية، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 38، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير - مارس، 2010، ص 246.

(4) كورتيس- جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، (من مقدمة جميل حمداوي للكتاب)، ص 13.

وبالرغم من استخدام عدة مؤلفين اللغة ذاتها وفقاً لنظام واحد، والحديث عن المعنى ذاته؛ إلا أنه سيكون هناك اختلاف كبير بينهم، وهذا ما بيّنته التجارب على مر السنين مع اختلاف اللغات، وذلك بسبب تغاير استخدام القيم اللغوية والفكرية وتفضيل بعضها على بعض، وهذا ما جعل (كورتيس) ومن سايره في تسريده للبنية العاملية، ينظر إلى السيميائية على أنها إنتاجٌ لا بد له من التفكيك والتركيب للوصول إلى المكون التركيبي، بناء على منظومة احتوائه على المستوى السطحي والعميق، وذلك ما اتبعه في تحليله السيميائي للخطاب، عند دراسته الإجرائية الواردة في فصل عنوانه: (التشاكل والترابط بين التعبير والمضمون: "الموكب الجنائزي") فقام بتقطيع النص ومن ثم تسريده ضمن ثنائيات متقابلة أو متضادة أو متشابهة، ليتوصل إلى المكون التركيبي للنص من خلال: البنية السطحية والعميقة[1].

إيكو

برز مشروع (إيكو Umberto Eco) السيميائي من خلال احتكاكه بالعلامة، وتعرفه لأهمية حضورها، واتساعه في حياة الإنسان لأنه روائي وناقد، فهو في كتابه العلامة، يرصد أنواعها وتاريخها ونشوءها من خلال تجربة مستخلصة من كتابته للرواية؛ فيبدأ بسرد قصة السيد سيغما الإيطالي أثناء رحلته في باريس، وكيف احتاج لزيارة طبيب بسبب ألم في معدته، وإذ بالسيد (سيغما) يتعرف إلى الدور المركزي لحضور العلامات في الحياة، فهو بحاجة لها لأنه "لا يمكن أن يخطو خطوة واحدة في الحياة دون الاستناد إلى سنن وشفرات تمكنه من فهم وتصنيف ما يحيط به، وتساعده على تحديد موقعه من نفسه ومن الآخرين"[2].

وقد أعطى (إيكو) الكثير من اهتمامه للعلامة، وأنواعها، وأشكال حضورها في الحياة؛ ودافع عنها لكونها استُبْعِدَتْ من العلوم، بعد أن أُعْلِنَ عن السيميائية علماً مستقلاً، فاستَهْجَنَ كيف يُعْقَلُ تجاهُلُها، ويعْلَنُ موتُها في حين هي تدخل في كل العلوم الرياضية والفلسفية والنحوية "فالعلامات تستعمل والكتب النحوية تؤلّف لإنتاج خطابات، ولكن الجميع يتهرّب من الاعتراف بعلم العلامات خطاباً فلسفياً. وعلى كل

(1) انظر: كورتيس- جوزيف، (التحليل السيميائي للخطاب: التشاكل والترابط بين التعبير والمضمون: الموكب الجنائزي)، تر: عبد الحميد بورايو، رشيد بن مالك، من كتاب السيميائية/ الأصول، القواعد، والتاريخ، ص ص 247- 258.

(2) إيكو- أمبرتو، العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، ص 9.

حال فإنّ أمهات الكتب في تاريخ الفكر تصمت كلّما تحدّث عن هذا العلم مفكِّر من الزّمن السابق"[1].

ذلـك أنـه قد توسـع بالتنظير لهذا العلم ومعارفـه، فاهتم بالبعدِ المعرفيِّ التأويليِّ للعلامة، بعد أن خرج من تحت سطح التغييراتِ الراديكاليةِ، وطغيان النسبيةِ المطلقةِ في العلوم بسـبب تسـلّط (Totalitarian) الوضعانية في القرن التاسـع عشـر، ومتأثراً بمن كانوا آباء الفلسفة من مثل (نيتشه Friedrich Nietzsche) و(هايدغر) و(إنجاردن Roman Anjardn) و(غادامير Hans-Georg Gadamer) و(ريكـور Paul Ricoeur) و(هابرماس Urgen Habermas)، الذين دخلوا في جدلية جدوى حضور الهيرمينوطيقا المنقذة للإنسـان من مخاطر تسـلط التقنية وسـيادة النزعة الوضعية (Trend status)، وتغيب النزعة الأخلاقية (Moralism).

وكل ذلك جعل من (إيكو) وريثاً حقيقياً لكل من مرَّ سابقاً لا سيما بعد صدور كتابـه (الأثـر المفتـوح) حيث "ينطلق إيكو من موضعة بديهية أو مسـلمة للحديث عن الأثـر المفتـوح تتمثـل فـي كـون العمل الفنـي عبارة عـن رسـالة (Message) يكتنفها الغموض أصلاً، أي بمعنى آخر يمكن أن نفهم العمل الأدبي على أنه كثافة المدلولات المتواجدة في دال واحد"[2].

وقـد وُسِـمَ تأويـل العلامة بأنه "تعريـف جزء من المضمون المنقول، في علاقاته مع الأجزاء الأخرى المستمدّة من التجزئة الكلية للمضمون. وهو أيضاً التعريف بجزء من خلال استعمال أجزاء أخرى، منقولة عبر تعابير أخرى"[3].

فالعلامة تتحول إلى شيفرة عندما تتجاور مع علامات أخرى داخل النص، لكن البنية التأويلية للشـيفرة لا تنتهي بتأويلها؛ لأنها تتحول إلى علامة مفسـرة تتجاور مع علامة مجاورة أخرى، وتتحول بذلك العلامة إلى تأويلات لا نهائية.

تأثَّر (إيكو) بالمؤول، والعلاقة بين المحتوى والتعبير في نظريات (بيرس)، وذلك أثناء مدارسته السيميائية البحثية في باريس، ويتبلور هذا التأثر عندما ينظر للدور المهم للقـارئ فـي تفسـيره للعلامـة؛ ما يعنـي أن تعدَّد ثقافات القارئ الواحـد، وتعدد القراء

(1) إيكو- أمبرتو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ط1، ص 45.

(2) بن بوعزيز- وحيد، حدود التأويل، قراءة في مشروع أمبرتو إيكو النقدي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2008، ط1، ص 23.

(3) إيكو- أمبرتو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، ص 110.

سيعطي تعدداً لا نهائياً للتفسيرات والتأويلات، وهذا يؤدي حسب ما يرى إلى التعقيد في النص، ومن ثم الغموض، وهو الذي سيعطي النص بنية جمالية حيث "تحدث زيادة الشفرة، على ما يبدو، كلما واجه المرء موضوعاً جديداً للإشارة، ومع ذلك فإن إيكو يضع العبء الرئيس للتغيير في الشيفرة على النصوص الجمالية، إذ يرى أن النص الجمالي يتميز بالغموض، لذا يرتكز على ذاته"[1].

وهكذا فقد ربط (إيكو) بين قدرة النص على احتضان المزيد من الشيفرات القابلة للتأويل اللانهائي، والمحافظة على البنى الجمالية، وهو ما قد أقلق الكثير من الباحثين في أن كثرة التوالد في الدلالات يجب أن تتوقف عند حد، وهذا ولّد استغراب (بنفنيست Emille Benveniste) ودهشته [2]، حيث إن "كل استنتاج عند بيرس يشكل سيرورة سيميائية"[3]. كما كان يرى المنظرون الذين شغلهم السَنَن بصفته نظاماً وبصفته تعالقاً[4].

وتحيلنا الإجراءات السيميائية التي نظَّر لها (إيكو) إلى أن منطلق اهتمامه بالعلامة كامن في قدرة العلامة الدينامية، وأصلها المتأصل في كل جوانب حياتنا؛ الذي نتعرف إليه من خلال تتبع سَنن العلامة داخل الإكسيولوجيا العامة (axiology)، مما جعله يدخل السيميائية متلهفاً للتعرف إليها عن كثب، فجاءت دراساته لتكثر من الحفر في الدلالات والمؤولات، ربما لأن ذلك يقارب بين إنتاجه الإبداعي بصفته روائياً أولاً، وبين نتائجه النظرية بصفته مفكراً وسيميائياً ثانياً.

ثالثاً: السيمياء والعلوم الأخرى

تحرص المباحث الآتية على الإشارة إلى علائق السيمياء بالعلوم الأخرى وتقاطعها معها؛ لتؤكد أهمية المعطيات المشتركة بين العلوم الإنسانية، وتكاملها، لأنه لا يوجد منهج يكتفي بذاته، لأن تشابك المعارف والعلوم والمناهج إذا كان ناجماً عن وعي قد يفضي إلى رؤى يمكن أن تقدم الكثير[5].

(1) راي- وليم، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تر: يوئيل يوسف عزيز، ص 144.
(2) انظر: بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 132.
(3) إيكو- أمبرتو، العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه، تر: سعيد بنكراد، ص 234.
(4) إيكو- أمبرتو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، ص ص 403- 412.
(5) انظر: مرتاض- عبد الملك، التحليل السيمَّائي للخطاب الشعري، تحليل بالإجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الجلبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص ص 11-12.

السيمياء والفلسفة

ظهر مفهوم العلامة في تاريخ التفكير الفلسفي من خلال الإشارة إلى أن اللغة عنصر حيوي للإنسان منذ الأزل؛ ولهذا يتطلب منا "البحث في العلامة بوصفها بؤرة السيميائيات من زاوية تأمل تجليات التفكير السيميائي القديم حتى يتسنى لنا فهم العلاقة بين السيميائيات والفلسفة"[1].

ونلاحظ بوادر الاهتمام الفلسفي بالسيمياء منذ أن تم طرح الثنائيات الفلسفية الكبرى: (المادة والشكل) و(العقل والروح) و(النفس والجسد).. حيث نوقشت هذه الثنائيات على أنها علامات تتصل ببعضها بعضاً، وتنفصل بعلائق: التضاد، والتشابه، والاختلاف، والتساوي.

وقد نوقشت هذه القضايا برؤية أرسطية وأفلاطونية جدلية طوراً، ورؤية رياضية ديكارتية تارة، ووضعت قواعد واستنتاجات بعد حدوث ضروب الشك في أركان العلامة، وغدت "إرهاصات المنطق الرمزي وملامحه ضرباً من المعرفة السيميائية التي تدل على طبيعة الأنساق الفكرية وطرائق تبادلها ضمن شراكة الآخر، وتتعامل مع الفكر على أنه لغة جبرية وإجراءات حسابية"[2]. وبذلك "يعد المنطق مصدراً رابعاً من مصادر السيميائيات الحديثة. فلقد استطعنا أن نقول إن جذور السيميائيات توجد في المنطق القديم والقروسطوي"[3].

فالعلامات السيميائية اللغوية اعتباطية (Arbitrary) والعلامات الأيقونية تقوم على المواضعات (Conventions)؛ وهذا جعل (بيرس) يصر على أن تكون الأيقونة من أنواع العلامة؛ في حين خالفه (إيكو) في أن الأيقونة تقوم على المواضعة ليس بسبب المشابهة بل وفق سَنَن أيقوني[4]، وفي كلتا الحالتين فإن التنظير لوجهتيْ النظر منبعه فلسفي، حيث إن هناك من حسب أنه "لا توجد علامات إيقونية، وحتى وإن وجدت فهي لا تتفرد بالتعليلية، بل من المفارقة الكبيرة، فإن العلامات الإيقونية هي في الواقع أيضاً قائمة على المواضعة مثل العلامات اللسانية"[5].

---

(1) يوسف- أحمد، الدلالات المفتوحة- مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ص 9.

(2) المرجع نفسه، ص 45.

(3) ديكرو- أوزوالد، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، ص 196.

(4) انظر: بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 118.

(5) يوسف- أحمد، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ص 12.

إن المواضعات اللسانية في أحد وجوهها مجالس جدلية بين الفلاسفة لتحقيق قواعد ناظمة لمجموعة من الظواهر الفكرية، والطبيعية، والرياضية في أطر فلسفية، باتت اليوم موضع نقد لدى النقاد والفلاسفة، فربط الكلام واللعب بمواقعه، يستند إلى المنطق، والكلام الذي لا يخضع إلى منطق يفقد كنهه، ويوصف مرسله بالجنون، و"من هنا ينتج أن الفلاسفة عندما يستخدمون اللسان لغايات تكوينية، ولتمييز جوهر الفكر أو الواقع، فإنهم يجذبونه خارج حقل التطبيق الذي هو حقله: إن معرفة جيدة باللسان لتجعل المشكلات التي يقال إنها "فلسفية" "تتبخر""[1].

وربما كانت كتب المنطق أكثر تنبهاً إلى وجود الثنائيات في الحياة، ومن خلالها كانت تقيم الجدل في القضايا الفلسفية "فإثنينية "الصحيح" / "الفاسد"، و"الصواب" / "الخطأ".. شائعة في كتب المنطق، ولا تكاد تعادلها في التداول والشيوع إلا عندما يعرف المنطق بوصفه "آلة"، و"فناً"، و"ميزاناً"، "معياراً"، و"محكاً للنظر"، إلخ، وهي أوصاف وألفاظ اتخذت عناوين لكتب منطقية بعينها"[2].

وهذه الثنائيات هي الناظم للتحليل اللساني، والتحليل السيميائي؛ لا سيما المدرسة الباريسية، ولا ننسى انطلاق (بيرس) في حديثه عن السيمياء من مفاهيم فلسفية وهو الذي كان يدْرُس الفلسفة ويدرِّسُها، فجاءت سيميائيته تتصف بالذرائعية، وتأويله للعلامة يمتد للمرجع، و"سيلاحظ القارئ الحاذق أن ما يجمع بين تصورات معرفية متعددة وبين نظرية بيرس، هو منطلقاتها الفلسفية، وليس مجموع المصطلحات التي جاءت بها"[3].

كما نلاحظ أن العلامات السيميائية تنتظم داخل ثلاث علاقات: علاقة تأويل، وعلاقة تماثل، وعلاقة تفسير.. ومن الواضح أنها علائق تعتمد الطرق الفلسفية في الحضور إلى الوجه التنظيري للعلامة، حيث إن مفهوم التأويل عبَّرت عنه معظم نظريات الفلسفة، فالتأويل ينطوي "على مجموعة من المفاهيم الأخرى الفرعية والمقابلة من مثل الفهم والتفسير والشرح والتطبيق، وتفسير الأفعال الإنسانية المجهولة"[4].

---

(1) ديكرو- أوزوالد، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، ص 222.

(2) الحداوي- طائع، سيميائيات التأويل، الإنتاج ومنطق الدلائل، ص 130.

(3) بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص ص 29-30.

(4) Cuddon-J.A, Dictionary of literary terms & literary theory, revised by C.E. Preston, p376.

وهناك من مايز بين التفسير (Interpretation) والتأويل (Hermeneutics) بالقول: إن الأول للمادة العلمية والعلوم الطبيعية، في حين أن الأخير يختص بالفكر والعلوم الإنسانية، غير أن (بول ريكور) قلّل من حدة الاختلاف وبحث عن التكامل بينهما، وقد كان علم التأويل الفلسفي الذي وضعه (غادامر) يؤكد وجود ثلاث مراحل في كل ممارسة تأويلية هي: الفهم، والتفسير أو التأويل والتطبيق.. [1].

ووصل الأمر ببعضهم إلى القول إن التأويل "مرادف للخيال، إنه فعالية إبداعية أكثر من كونه فعالية نقدية"[2]. بينما هناك من وجد أن التأويل مخالف للخيال لكونه يكبح جماحه التي تتوهج بعد القراءة، فالتفكيك "أظهر نوعاً من الرفض لكل فكر يتخذ من الهيرمينوطيقا مشرباً، وبخاصة إذا ما صدقت تلك المقولة التي تنظر إلى الهرمينوطيقا بما هي فن الفهم"[3].

وقد تبلورت النظرة العامة للمفهوم الفلسفي السيميائي عندما تجاوز (إيكو) التناقضات، ومحاولات الممايزة بين الفلسفة والسيمياء بخلوصه إلى أن: "التأويل غير محدود. إن محاولة الوصول إلى دلالة نهائية ومنيعة سيؤدي إلى فتح متاهات وانزلاقات دلالية لا حصر لها. فالنبتة لا تتحدد انطلاقاً من خصائصها المورفولوجية والوظيفية، بل تتحدد انطلاقاً من تشابهها مع عنصر آخر داخل الكوسموس، حتى ولو كان هذا التشابه تشابهاً جزئياً. "[4].

وكثّف الانتباه لكيفية تلقي العلامة والتمثيل لها بمكون ينتمي للطبيعة من التقارب بين الحياة والسيمياء، بما أن الحياة مادة جدلية فلسفية.

وقد بات الفلاسفة موضعاً للنقد من السيميائية التطبيقية "ولا غرو أننا – بعد جهد المران وطول الدربة – نتمكن من الاهتداء إلى أنماط الكتابة– لدى أفلاطون وإقليدس والكندي والفارابي والغزالي والتوحيدي وابن رشد وديكارت وسبينوزا وكانط وهيجل ونيتشه وكيركيجارد وغيرهم– من أسلوبهم في بسط دعاواهم الجدلية أو الحجاجية

(1) انظر: شرفي– عبد الكريم، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص ص 17–23.

(2) شور– نايمي، (التخييل تأويلًا والتأويل تخييلًا)، القارئ في النص، مقالات في الجمهور والتأويل، تحرير: سوزان روبين سليمان، إنجي كروسمان، تر: حسن ناظم، علي حاكم صالح، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2007، ط1، ص 202.

(3) غراندان– جان، المنعرج الهرمينوطيقي للفينومينولوجيا، ترجمة وتقديم: عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2007، ط1، ص 175.

(4) إيكو– أمبرتو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ترجمة وتقديم: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2004، ط2، ص 33.

أوالبرهانية"[1].

وما سبق يؤكد الدور التبادلي بين الفلسفة والسيمياء؛ فالفلسفة قد أسهمت في تبلور ولادة السيمياء؛ التي شاركت بدورها في تطوير جوانب من الفلسفة، وتمكينها من التنظير الجدلي لمقولاتها ضمن أطر العلامة واشتقاقاتها، إضافة إلى ما قدَّمته المدارس السيميائية من طرق إجرائية اعتمدت المربع السيميائي (Semiotic Square)، أو المحوريْن التركيبي (Diachronic) والاستبدالي (Synchronic)..

والفلسفة حركة دائمة في المفاهيم، والأفكار، والنظريات تتشكل من حصيلة الحراك الفكري البشري في أجزائه، أو في تفاصيله، وليست العلاقة بينها، وبين الروافد المنهجية، والعلمية علاقة واضحة الحدود والمعالم، إذ قد تكون الضبابية تسيطر على كثير من تفاصيل تلك العلاقة، ولا تتكشف قبل مرور فترة طويلة من الزمن تسمح للرؤى أن تتضح، ولذا يتكشف أن العلاقة بين الفلسفة والسيمياء تشاركية، تمثل في جوانب منها علاقة الأخذ والعطاء[2].

السيمياء والرياضيات

إن الرابط الرئيس بين الرياضيات والعلوم الإنسانية هو العقل والمنطق، اللذان يستطيعان تطويع المُثُلِ إلى مجرداتٍ، كما هو الفكر الأرسطي، ولذا "كانت الصورة الرياضية مجردة من مادة الموجود الطبيعي، وإذا كانت الصورة الجدلية مجردة من صورته، فليس المنطق إلا ترييض الجدل. أي أن المواد الرياضية "ما صدق الحدود" يقع تطبيقها على الصور الجدلية "مفهوم الحدود" فما هو قابل للصياغة الكمية في الصور الجدلية يمثل مادتها التي تصورها الرياضيات"[3].

إن الرياضيات علم يقوم على العلاقات المنطقية، والمنطق مفرز طبيعي للتفكير الجدلي الممجد للعقل في كل مراحله، وبما أنّ الرياضيات مادة تحتوي النظريات والمفاهيم والإجراء، فإنَّ رابطها في هذه العملية هو المنطق، الذي يشبه الكثير من

(1) يوسف- أحمد، السيميائيات التأويلية وفلسفة الأسلوب، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس، 2007، ص 83.

(2) انظر: بارة- عبد الغني، الهرمينوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2008، ص 11.

(3) المرزوقي- أبو يعرب، سلم الموضوعات العلمية والدلالات الرياضية في فلسفة أرسطو، **الفكر العربي المعاصر**، العددان 18/ 19، مركز الإنماء القومي، بيروت، شباط/ آذار، 1982، ص 46.

الترابطات والعلاقات العملية والتنظيرية في العلوم، كما فيما يحكم اللغة وتركيبها، والتنظير للمعارف السيميائية والتطبيق المنطقي للإجراء السيميائي على النصوص.

إنها علوم محكومة بالمنطق، وقد عُدَّ تطويع الرياضيات إلى حالة نسبية تتصل بتفسير عالم المثل الإنساني؛ أمراً ملفتاً؛ بوصفها علماً للجدل والمجردات؛ إذ "كانت الرياضيات عاملاً حاسماً أثَّر في منطق (بيرس)؛ لأنها أكثر المعارف تجريداً وهي سابقة على المنطق حسب تصنيفها للعلوم، كما أصبحتْ تعتمد على العبارات الرمزية ذات الصيغ الجبرية، بوصفها لغات اصطناعية تتجاوز عجز اللغات الطبيعية، وتتجرد لغتها السيميائية من تبعيتها للمضامين المادية، وتكتفي بأشكالها الصورية؛ حيث إنَّ الضرورة في الاستدلالات الصورية لا تكون مقبولة إلا في الرياضيات التي أصبحت علاقتها حميمة مع المنطق في التفكير المعاصر من حيث هو ضمان لمرتكزاتها ومبادئها"[1]. تقوم الرياضيات على القوانين والإثبات (Assertion) والبرهان (Argumentation)، كما هي حال العلوم الرياضية الأخرى من مثل الفيزياء التي ترصد الظواهر بصفتها علامات "فعندما يقف الفيزيائيون أمام تحديد مسألة ما أياً كانت فإنهم يحددون مجموعة واسعة من الظواهر وما يعارضها من سلوك مضاد، ولأجل التأكد من العديد من الحقائق التجريبية يقومون بتتبع كل حالة بصفتها علامة أو ترسيمة في داخل علائق مختلفة الحضور بين (التعالق والتفكك والتداخل،.. إلخ) مهيئين المجال لسلسلة من القوانين الناظمة تشرح خصائص النظرية التي توصلوا لها"[2]، وهذا يتقاطع مع السيميائية في الجوانب، التي ترى أنها علم يؤمن بالأنظمة والعلائق بين الصوائت بكل أنواعها وتراكيبها، ويتحدث عن التعبيرات الصوتية ومقاديرها، وتسعى السيميائية لتحقيق بيئة من التعالقات والتشابكات المنظمة تنتقل بها إلى حالة مفهومة بصفتها نتائج لمقدمات؛ لتتوالد دلالاتها وتتفجر، داخل كينونة العلامة وخارجها، في بنى ورموز، لا يمكن أن تتشكل وتتحول من التنظير للفعل الإجرائي، دون الدخول في الصور الجدلية للتنظير، وذلك ضمن رسومات مثل الخطاطات: السردية، والإرسال والتوصيل، والسيرورة السيميائية، والمربع السيميائي، ومحوريْ التركيب والاستبدال، وبعض الرسوم البيانية، وهذا يقودنا للقول بأن السيميائية منهج يقبل الرموز؛ بل يقوم على الترميز.

---

(1) يوسف- أحمد، السيميائيات الواصفة، المنطق السيميائي وجبر العلامات، ص 128.

(2) - J.katz- Jerrold, Semantic Theory, Studies in Language, Editors: Noam Chomsky and Morris Halle, publishers: Harper & Row, New York,1972 , p4.

وما سبق دفع الباحثين في السيميائية واللسانيات للتساؤل عن مدى تقارب ما قدمه (سوسير) من نظريات مع ما أنجزه علماء الرياضيات والفيزياء؛ فطرحوا السؤال الآتي: "هل يمكن أن نقارنه في هذا المساق بـ: غاليلي Galilee، الذي يعد أول من أقام نموذج القوانين العددية للفيزيائية الحديثة؟"(1).

وهذه الأوليات جسَّدتها السيميائية الإجرائية، فطالت المعنى وقدرته على الإيصال "فلعالم المعنى مستوى أفقي يمثل الحضور ومستوى استبدالي ويمثل الغياب، وتلك من مزيات جلتها تقويضية ديريدا انطلاقاً من مدارستها لمفهوم العلامة لدى هوسرل"(2).

وينأى رصد المعنى في أذهان الكثيرين عن التحليل الممنهج، لكن السيميائية أولته رعاية مختلفة وأعطته أبعاده التي يستحقها، إذ إنَّ "السيميائيات المحايثة منهمكة انهماكاً كلياً في رصد المعنى وتحولاته"(3). وهذا جعلها شغوفة بالإجراء الرياضي في محاولتها للوصول إلى نتائج معينة؛ ذلك أن "السيميائيات الحديثة والمعاصرة بشقّيْها الأمريكي والأوروبي، أقيم بناؤها، من بين ما أقيم عليه، على أوليات منطقية رياضية، كشأن "السيميائيات" القديمة والوسيطة وامتداداتها"(4).

إن هذا الأمر لم يكن تنظيرياً، يطال المراحل المتقدمة من السيمياء؛ لأن بعض المشتغلين بها حاولوا أن يعودوا بأصولها إلى السيمياء الرياضية، ووجودها في العلوم بتوجيه مفاهيم أغسطين وتحديدها داخل علائق رياضية، حيث يستند فهم (أغسطين) للعلامة على "الكلمة verbum أو على الأصح يتجه نحو (الاسم)، ويتوزع على علاقة علامة/ مفهوم، وحتى يشتغل الشيء بوصفه علامة، ينبغي للمؤول أن يدرك بأنه علامة. وعليه فالشيء بالإضافة إلى أنه ينتج المعاني يستدعي في ذاته شيئاً آخر إلى التفكير... فالشيء لا يصبح علامة ما لم يُحِلْ على شيء آخر"(5).

وربما يجد بعض المتابعين مغالاة لو رأوا معادلة رياضية، كما هو في الجبر تقوم برصد بعض المفردات أو الصفات في نص ما، لكنه أمر بات مطروقاً في

(1) إينو- آن، (تاريخ السيميائية)، السيميائية، الأصول، القواعد والتاريخ، تر: رشيد بن مالك، ص 75.
(2) يوسف- أحمد، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ص 10.
(3) المرجع نفسه، ص 11.
(4) مفتاح- محمد، أوليات منطقية رياضية في النظرية السيميائية، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس، 2007، ص 133.
(5) يوسف- أحمد، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ص 25.

حدود الاستدلال السيميائي، كما هو الأمر "بتمثيلنا، دائماً بواسطة س صنف "الناس" وبواسطة ص صنف "الأسياويين" نضع ط لتمثيل الصفة "أبيض" على مجموع الناس المعبر عنهم في "الناس الأسياويين" نحصل على معنى القول نفسه في "الناس البيض ما عدا الأسياويين البيض" مما يجعل من المعادلة الآتية قانوناً سادساً:

ط (س- ص) = ط س- ط ص

وهو قانون مطابق، كما هو واضح لقوانين الجبر المألوف"[1].

ومن الملفت حضور مصطلحات الرياضيات بقوة في السيميائية بكل اتجاهاتها، وهو ما يقربها من العلوم الرياضية، فلا يمكن الحديث في السيميائية السردية مثلاً دون التطرق إلى اللكسيم (Lexeme) والفونيم (Phoneme)، وما سيحيل إليه هذان المصطلحان بعد التقائهما التركيبي/ الاستبدالي، بالمدلول والرسالة والمرسل إليه، والنموذج العاملي (Actantial modal)، والاستطاعة (Competence)، أو التحقق، والقيمة (Value)، والبرهنة (argumentation). في خطاطة (غريماس) السردية، وما يقابله في الرياضيات عبر مصطلحات التحقق، والبرهان، والقيمة والتقدير والفرضية...

السيمياء واللسانيات

قاد تقاطعُ الفكر اللساني والفكر السيميائي إلى إعادة نظر جذرية بالعلوم الإنسانية بما فيها علوم النفس والاجتماع والتاريخ والأدب...

وثمة من يتحدث عن أصناف العلامتيْن اللسانية وغير اللسانية ليعطي التميز "للعلامات المحمولة في الكلمات لكونها قادرة على تمثيل العلامات البصرية والسمعية وغيرها، نظراً لتوافر الكلام على القدرة المنطقية والطاقة الحجاجية، وإن تعددت الألسن لدى البشر؛ فالقواعد واحدة في كل اللغات من حيث جوهرها حسب اعتقاد روجر بيكون"[2].

ومن هنا نتعرف إلى بعض المصادر التي انطلق منها (سوسير)؛ حيث تنبأ بالرابطة القوية بين العِلميْن في مقطع شهير له من (محاضرات في الألسنية العامة) إذ قال:

(1) الحداوي- طائع، سيميائيات التأويل، الإنتاج ومنطق الدلائل، ص ص 144-145. كذلك أشار إلى تصور جورج بول في إمكانية تمثيل الأشياء بوصفها أشياء مخصصة بأسماء، وصفات أو حالات يمكن أن تنطبق على كل عنصر معتبر في مجموعة فحسب.

(2) يوسف- أحمد، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ص 26.

"اللغة نظام من العلامات التي تعبر عن أفكار، ومن هذه الناحية فهي مماثلة للكتابة وأبجدية الصم والبكم والطقوس الرمزية وصيغ الاحترام والإشارات العسكرية، ورغم هذه المماثلة تبقى اللغة أهم الأنظمة.

ولذلك يمكن أن نؤسس علماً يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، فيشكل هذا العلم جزءاً من علم النفس الاجتماعي، وسنطلق عليه اسم علم العلامات أو السيميولوجيا، وسوف يكون علم اللغة قسماً من السيميولوجيا"[1].

ومن الملفت أن عدداً من السيميائيين لم يستطيعوا الخروج على مفاهيم اللسان وفصلها عن المفاهيم السيميائية، بل إنهم يخلطون بينهما، وربما يجدون أن الفارق لا يتجاوز التسمية أو المصطلح.

إن السيميائية بمظهرها الأولي الذي تبدت فيه في العصر الحديث على شكل تنظير لعلم قادم على يدي (سوسير) لم تكن ذات لبنات منهجية، وطغى على الأمثلة التي طرحها (سوسير) في التمثيل للعلامة عدم الدقة "وقد نتج عن هذا الغموض في التحديد أن سار هذا العلم الناشئ في اتجاهين متباينين. فبعض الباحثين ذهب إلى أن السيميائيات ينبغي أن تعنى بدراسة الأنساق التواصلية فقط، أي تلك التي يكون القصد من توظيفها هو التواصل أساساً.. في حين ذهب آخرون إلى ضرورة توسيع مجال البحث السيميائي ليشمل كل الظواهر الثقافية الدالة، ويمثل هذا الفريق (بارط) و(كريماس) و(كورتيس)"[2].

فقام بعض النقاد العرب بتقسيم الكلام بصفته صوتاً لغوياً إلى "ثلاثة مستويات مميزة: بوصفها صوتاً؛

فالكلمة 1: هي ذاتها علامة لكيان آخر.

والكلمة 2: التي "تعطي الضوء الداخلي" فهذه الكلمة جوهرية لتعريفها وجزء من الذاكرة (المظهر العقلي للمعنى).

وأخيراً الكلمة 3: تقتضي علاقة نفسية شاملة "حب ما هو معروف".

ويمكن أن نشير إلى أن القضية تحكمها ثلاثة أشياء: العبارة التي تضطلع بإيضاح

---

(1) دي سوسير- فرديناند، محاضرات في الألسنية العامة، تر: يوسف غازي، ومجيد النصر، ص 33.

(2) العماري- محمد التهامي (المعد والمترجم)، مجموعة من المؤلفين، حقول سيميائية، السيميائيات الاجتماعية، سيميائيات المسرح، سيميائيات التلقي، منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب- كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة مكناس، مكناس، 2007، (من مقدمة المترجم)، ص ص 19-20.

كيفية الإسناد، والمفهوم الذي هو ما يسند إلى الشيء؛ أما الشيء فيُحدِّد الكميات والأجزاء التي تتألف منها القضية؛ ولهذه الإشارة علاقة بالسيميائيات؛ إذا احتكمنا إلى تعريف (ش. س. بيرس) لها من أنها ليست سوى تسمية أخرى للمنطق"[1].

إلا أنَّ نفراً كبيراً من الباحثين يعدّ اللسانيات أحد اتجاهات السيميائية المعاصرة، ومنهم (سوسير).

وقد استمدت السيميائية الكثير من مفاهيم اللسانيات، لا سيما "الإسهام المباشر لسوسير في السيميولوجيا غير اللسانية، فقد تحدد تقريباً بحدود هذه الجمل، ولكنها جمل اضطلعت بدور كبير، وخاصة في فرنسا، حيث كان من نتائجها (المفارقة) أن تطور السيميولوجيا قد احتذى مثال اللسانيات بشكل دقيق"[2].

وذلك ما نجده في احتذاء بعض القواعد التركيبية لعلم اللغة أثناء القيام بالتحليل السردي للخطاب، كما في التحليل السيميائي في المدرسة الباريسية، حيث تتخذ من المورفولوجيا أحد مستويات الإجراء "فالإجرائيات التي يجب تحديدها تكون ملزمة بالأخذ بعين الاعتبار كمكونات الخطاب، وهذا ما يجعل أن مستويات المسار التوليدي: – المستوى المورفولوجي، – المستوى السطحي، – المستوى الخطابي"[3].

وأول عنصر يمكن أن يمايز بين اللسانيات والسيميائيات القول بأن اللسان هو العُرف، "فالحالات الوجدانية الإنسانية واحدة رغم تنوع الكائنات واختلافها، إلا أنَّ التعبير عنها صوتاً أو كتابة لا يمكن أن يكون واحداً. وتشكل هذه الملاحظة البدايات الأولى نحو تلمس أحد المبادئ الأساسية الخاصة باللسان الذي هو العرف، العرف الثقافي واللغوي، وكل الأشكال الرمزية التي أنتجها الإنسان وأودع داخلها كل حياته"[4].

بينما في السيميائيات نجد أن السَنن ارتبط بالسياق الثقافي (Cultural Context)، وهو ما يحدد المرجعية الخاصة بالعلامة لفئة ما دون فئة، أو التغاير في دلالة هذه

(1) يوسف– أحمد، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ص 27.

(2) ديكرو– أوزوالد، جان ماري سشايفر، القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، تر: منذر عياشي، ص 195.

(3) نوسي– عبد المجيد، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، البنيات الخطابية– التركيب – الدلالة، دار المدارس، الدار البيضاء، 2002، ط1، ص 25.

(4) بنكراد– سعيد، السيميائيات، النشأة والموضوع، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير– مارس، 2007، ص 13.

العلامة النابع أساساً من السَنن، وهو أنواع: السنن الجمالي، والسنن الوراثي، والسنن الحيواني، والسنن الأيقوني، وسنن السلوك التفاعلي[1]...

والشرط الأساسي في وظيفة اللسان، هو التواصل الذي يشترط القصدية وإرادة المتكلم في التأثير في الآخر، فلا يمكن للعلامة السيميائية أن تكون أداة التواصلية القصدية دائماً، فربما نجد أن هناك علامات ترتبط بالقصدية، وهي ما سماها (إيكو) بـ "علامات الإصرار" من مثل البصمات واللطمات والخدوش، لكنه أشار لوجود علامات اعتباطية داخل هذا النوع من حيث المنشأ، ولا يمكن تفسيرها ضمن استدلالها؛ إلا إنْ توافر السنن ذاته لدى كل من المرسل والمرسل إليه، كما في بعض أنواع التحيات، وهناك علامات ترتبط بـ "مفهوم الماصدق" وهو أن يلبس أحدهم كنزة تحمل رسم المنجل والمطرقة التي ترمز للشيوعية، دون أن يعرف هذا الشخص مدلول الرسم، أو أن يكون قصده التدليل على انتمائه الشيوعي، وهذا ما يجعل العلامات السيميائية مغايرة للعلامات اللسانية وهذا هو الفرق الجوهري، بحسب ما يرى بعض المهتمين[2].

وهذه الاعتباطية، وتنوع العلامات بين القصدية واللاقصدية هو ما سوّغ أن يكون "السلوك السيميائي هو نتاج عوالم التجريد والتعميم والرمز، ولا يمكن أن يُفهم ويستوعب ويؤول، إلا باعتباره مساراً داخل عجلة تجريدية لا تتوقف عن الدوران والحركة"[3].

وهو ما دفع السيميائية كي تنطلق بصفتها علماً شاملاً يمكن أن تنضوي تحت يافطته الكبيرة الكثير من العناوين والاتصالات الفرعية، التي أغنت مجالات الحياة، وولدت آفاقاً معرفية جديدة في كل المجالات العلمية والفلسفية والفنية.

السيمياء والدلالة

يستمدّ العمل الأدبي أدبيته من كونه مختلفاً في دلالاته اللغوية عن النص العلمي، أو المفكرات، ودليل الهاتف وهي نصوص أحادية الدلالة[4]، ولا يحتمل النص العلمي

(1) انظر: إيكو- أمبرتو، السيميائية وفلسفة اللغة، تر: أحمد الصمعي، ص ص 391-400.

(2) المرجع نفسه، ص 62.

(3) بنكراد- سعيد، السيميائيات، النشأة والموضوع، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس، 2007، ص 9.

(4) ويلك- رينيه، أوستن وارين، نظرية الأدب، تر: محيي الدين صبحي، مر: حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987، ص 53.

المزيد من الدلالات؛ وإلا فَقَدَ مصداقيته في كونه صحيحاً أو خاطئاً "إن العلم يعالج الأشياء، ولا يعيش في داخلها، وهذا ما حدث لكثير من التفسير الأدبي. وقد نسينا أن العمل الأدبي ليس موضوعاً يخضع تماماً لتصرفنا، العمل الأدبي فيما يقول الفنومنولوجيون إنسان ينبعث من الماضي، ويجب أن يعود إلى الحياة"[1]. فمفردات اللغة عامة تخضع لتعدد الدلالات لا سيما إن تموضعت داخل جمل معبرة أو أدبية، فهي عندها ستتحول إلى مفردات جديدة[2].

والحديث عن علم الدلالة (Semantics) بصفته علماً مستقلاً عن السيمياء أمر يصعب القطع فيه "حيث يعكس التمييز بين هذين النوعين من علم اللغة- أعني السيمياء وعلم الدلالة- هذه الشبكة من العلاقات. فالسيمياء العلم الذي يدرس العلامات، علم شكلي صوري بحيث إنه يعتمد على تجزئة اللغة إلى أجزائها المكونة. أما علم الدلالة، علم الجملة، فمعني مباشرة بمفهوم المعنى"[3].

فقد كان يقصد بعلم الدلالة بداية "دراسة لمعنى الكلمات"[4] لكن هذه الدراسة أخذت بالتطور لتتعلق بالمفاهيم الاجتماعية والثقافية مما يجعلها معبرة عن الإنسان قديمه وحديثه، آخذة بالاعتبار الطبيعة التركيبية، فإنْ "كانت الأشياء لا تدرك إلا باعتبار موقعها ضمن "قسم خاص" نطلق عليه أحياناً "النسق" وأحياناً أخرى "النموذج"، فإن الدلالة المرتبطة بهذه الأشياء... لا تستقيم إلا من خلال تحديد موقع هذا الشيء أو ذاك ضمن هذا النسق أو ذاك"[5].

ولا يمكن لهذه العلاقات الدلالية أياً كانت ارتباطاتها خارج نصية، إلا أنْ تتشكل ضمن قواعد كلامية تنظم المفردات لتتحول إلى جمل مترابطة، تحمل مداليل مفاهيم ذهنية مسبقة، ومن هنا نجد في دراسة علم الدلالة مدرستين دلاليتين بارزتين هما:

- المدرسة البنيانية، وقد اعتنت بضرورة كون الدلالة يجب أن تنتظم من خلال "مكونات ثلاثة هي: المكوَّن الفونولوجي والمكوَّن التركيبي والمكوَّن الدلالي وتُربط

(1) ناصف- مصطفى، نظرية التأويل، النادي الثقافي الأدبي، جدة، 2000، ط1، ص 19.

(2) انظر: Leech- Geoffrey, Apelican Original, Semantics, Penguin Books ltd, New York, 1978, fifth edition, pp 231-233.

(3) ريكور- بول، نظرية التأويل، الخطاب وفائض المعنى، تر: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2006، ط2، ص ص 32-33.

(4) جيرو- بيير، علم الدلالة، تر: منذر عياشي، دار طلاس، دمشق، 1992، ص 15.

(5) بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 144.

هذه المكونات مجتمعة في إطار اللغة بين الأصوات والمعاني. يُعتبر المكوَّن التركيبي المكوَّن التوليدي الوحيد، أي المكوَّن الذي يصف بنية الجمل العميقة ويعدد عناصرها المؤلفة؛ في حين أن المكوَّنين الفونولوجي والدلالي هما تفسيريان"[1].

– المدرسة التوليدية، وقد درست الدلالات على أنها تدرك من خلال عدة طرق منها:

1– الطريقة الشكلية 2– الطريقة السياقية 3– الطريقة الموضعية 4– الحقول الدلالية 5– التحليل المؤلفاتي.

غير أنَّ التحليل المؤلفاتي هو ما يشيع بين طرق التصنيف الدلالي؛ لأنه أكثر شمولية وأكثر استعمالاً، ولكون الطرق الأخرى في تحليل دلالات المفردات تندرج في حقول دلالية مبنية على أساس التماثل أو التضاد، أو على أساس التدرج، والسببية يمكن إعادة تحليلها على ضوء التحليل المؤلفاتي الذي يلحظ معالجة تبيان العلاقات التضمينية بين نفي الجمل وتأكيدها، أو بين غيابها وبروزها..[2].

ويُلحَظ أن إحدى مدرستي علم الدلالة قد سميت بالمدرسة التوليدية واعتنت بتشعب الدلالات وخضوعها للتأويل، إضافة إلى أن هناك من النقاد من يرى أن إدخال البلاغة (Rhetoric) في الدلالة مؤدى طبيعي، لأنها تعيد إنتاج النص من خلال توجيه القراءة نحو إعادة استقراء النص واستنطاقه، بحيث "تسهم في إنتاج القراءة، وتتماهى مع التأويليات، وتفضي إلى السيميائيات التأويلية"[3]. وفقاً لـ (بيرس).

و"للدلالة هنا علاقة بالعلامة وبالسيميائيات التي تشمل الشعريات والجماليات، ذلك أن البعد الدلالي لم يأخذ حظه من الدرس الأسلوبي، كما هو حاصل في المستويات اللفظية والتركيبية، لكنه صار موضوعاً محورياً في الدراسات السيميائية التداولية"[4]. فنتج لدينا الانزياح (Ecart) بنوعيْه: الاستبدالي والتركيبي، حيث تبقى المفردات لكسيمات تنتقل، وتتبدل في موقعها وتركيبها إلى أن تصل لصيغ دلالية

(1) زكريا– ميشال، المكون الدلالي في القواعد التوليدية والتحويلية، **الفكر العربي المعاصر**، العددان 18/ 19، مركز الإنماء القومي، بيروت، شباط/ آذار، 1982، ص 13.

(2) انظر: أبو ناضر– موريس، مدخل إلى علم الدلالة الألسني، **الفكر العربي المعاصر**، العددان 18/ 19، مركز الإنماء القومي، بيروت، شباط/ آذار، 1982، ص 36.

(3) يوسف– أحمد، السيميائيات التأويلية وفلسفة الأسلوب، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير– مارس، 2007، ص 52.

(4) المرجع نفسه، ص 86.

تنزاح عن معنى محدد إلى حالة من تعدد المعاني، وهو يشكل دوراً مهماً للسيمياء كإجراء لجمل منزاحة، وهذا يتقاطع مع دور البلاغة بهيئاتها المتنوعة حتى بلوغ الدلالات.

وعلى الرغم من محاولة الكثيرين التعريف بمعنى الانزياح، إلا أنه بقي ضمن دائرة ابتعاد المفردات في دلالتها عن المعنى الموجود داخل التركيب المحدد للجملة "إنه بكل بساطة خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياساً في الاستعمال، رؤية ولغة وصياغة وتركيباً"[1]. بل إن هناك من عرف الانزياح بأنه "فيْصَلٌ ما بين الكلام الفني وغير الفني"[2] كان مؤدى حدوثه هو تغيّر في الدلالات رغم تعدد المصطلحات المعبرة عنه.

فقد اعتنت السيمياء الدلالية على يد (رولان بارت) بكل الانزياحات التي تطرأ على العلامات نسبةً لمحوريْ التركيب والاستبدال، متجاوزة العلامات داخل النص الأدبي إلى كونها علامات تنتمي لأنساق اجتماعية وثقافية داخل مستوى الدال والمدلول: "ويقصد بارط هنا الأنساق الدالة ذات الأصل الاستعمالي، مثلما هو الحال بالنسبة إلى (معطف الفرو) الذي يستعمله الإنسان منذ مراحله البدائية. ويسمي هذه الأنساق (الوظائف- العلامات) (function- Signes) لأنها تستعمَل وتدلُّ في نفس الوقت. فبمجرد ما يكون هناك مجتمع، يتحول كل استعمال (usage) إلى علامة لهذا الاستعمال نفسه"[3]. وما جعل علم الدلالة يتسع ليشمل الأنساق والمعاني في الحياة عامة هو البعد السيميائي الذي تضمنه.

إن للسيمياء ميزة احتواء الدلالات القديمة والحاضرة والمستقبلية، والقدرة على ضبطها ضمن آليات مكرسة وممكنة الحضور، والتواصل مع هذه الآليات لاستمرار بقاء السيميائية منهجاً إجرائياً لتلك الدلالات، وتلازم المفهومين جعل العلامة وفقاً لذلك "لا تنتج دلالة أحادية مكتفية بذاتها ترتاح إليها الذات، بل تولد سيرورة تدليلية بالغة الغنى والتنوع. فكل الإحالات ممكنة انطلاقاً من فعل التمثيل الأول، أي الفعل الذي يضع الماثول ضمن حركة سميوزية تستند إلى المؤول باعتباره العنصر الحاسم

(1) اليافي- نعيم، أطياف الوجه الواحد، دراسات نقدية في النظرية والتطبيق، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ط1، ص 92.

(2) ويس- أحمد، الانزياح في منظور الدراسات الأسلوبية، **كتاب الرياض**، العدد113، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، أبريل 2003، ص 8.

(3) المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 73.

في وجود الدلالة وتداولها"[1].

وبذلك فإن العلاقة بين سيميائية التواصل وسيميائية الدلالة هي علاقة تكامل وتعاضد، فلا يمكن الولوج إلى سيمياء الدلالة دون اختبار(Test) البنى التركيبية للنص وتوجيهها في داخل الخطاطة السردية بما يخدم الدلالة، كما لا يمكن إجراء التحليل السيميائي للنص الأدبي، دون الإفادة من الدلالة بصفتها مفهوماً أساسياً داخل: المستوى الدلالي و"أهم ما فيه هو القيمة، فانطلاقاً من أن الموضوع في البرنامج السردي هو موضوع – قيمة أولاً، فإنّ فهم السياق السوسيو ثقافي في أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية يعد قيمة معرفية تشحن داخل الموضوع التركيبي، وبذلك فهي قيمة تحدد الموضوع دلالياً"[2].

وكون العلائق السيميائية بين الدال والمدلول والمفهوم، وبحسب ما ورد سابقاً، هي علائق اعتباطية، يدفعنا لنتساءل: إلى أي مدى تشارك السيميائية في كشف فضاءات دلالية (Semantic Topics) واقعية أو خيالية؟ وهل هذه الدلالات متوالدة ومتكاثرة؟

وهنا لا بد من تذكر أن أساس تصور (بيرس) قائم على المتاهة التأويلية، حيث "تنبعث الدلالة من فعل العلامة كسيرورة بلا رادع ولا ضفاف ولا حدود، فما نحصل عليه من معرفة بعد أن يستنفد الفعل التأويلي طاقاته لا علاقة له بالنقطة التي شكلت بداية التأويل"[3].

ونعلم أن العلامة حاضرة في فضاء مكاني أو نصي ما، وأن دلالتها موجودة مثلها، وإن كانت مغيبة، وهذا ليس إلا تنبهاً لسؤال يفتح الدلالات: "هل العدم علامة تحيلنا على شيء آخر؟"[4].

ويجيبنا الناقد ذاته عن السؤال بالاستناد إلى ما لوحظ في "أن هناك علامات لسانية فارغة من المعنى، أو هي كذلك إنْ كان المستقبِل جاهلاً بمعناها. فهناك كلام مستقيم استقامة معجمية وتركيبية ولكنه محال من الناحية الدلالية، فبما أن مدلول "اللاشيء" لا يمثل شيئاً ولا حالة من العالم، فإن أوغسطين ينتهي إلى أن هذا

(1) بنكراد– سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 129.

(2) نوسي– عبد المجيد، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، ص 158.

(3) بنكراد– سعيد، السيميائيات، النشأة والموضوع، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير– مارس، 2007، ص 42.

(4) يوسف– أحمد، الدلالات المفتوحة، مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة، ص 27.

المصطلح هو تعبير عن انفعالات النفس"[1].

وبناء على ما سبق يمكننا القول: إن السيمياء تولي جوانب النص المختلفة اهتماماً متوازناً، ويحظى الجانب الدلالي بعناية خاصة، ذلك أن الدلالة تتصل بصلب السيمياء بصفتها منهجاً نظرياً وتطبيقياً؛ لأنها تقوم على الإشارات والرموز والأدلة، وتخترق نواظم محددة، وتفتعل طرقاً إجرائية لإثبات حضور رموزها داخل منظومتها العلمية الخاصة.

وليست السيرورة الثلاثية لـ (بيرس) إلا فتحاً مهماً لتوليد الدلالات؛ فكل إحالة للأولانية إلى الثانيانية فالثالثانية، تتطلب إحالات متتالية إلى اللانهاية، وهو يشي بالتغير الذي طال السيمياء في كونها أخذت بالاهتمام بالنقد الثقافي.

السيمياء والنقد الثقافي

أفضت التحولات التي شهدتها نهايات القرن العشرين بالنقاد إلى حالة من البحث الدائم عن نظرية شاملة للنظريات والمناهج النقدية السابقة، دون المساس بخصوصيتها، فقد لقيت اتجاهات التلقي والتأويل والتفكيكية (Deconstruction) وما بعدها انتقادات كثيرة، حيث "ستعرف الاتجاهات السميولوجية والتفكيكية والتأويلية واتجاهات تحليل الخطاب ترحّلاً دائماً بين مصادر إمداد متعددة ومصاب تطبيق متنوعة"[2].

وكان للسيميائية داخل هذه التحولات شأن خاص، فقد حاولت التواصل مع هذه الاتجاهات اعتقاداً من منظِّريها أنَّها علم مرن يتقبل التجديد والتعددية، فظهرت سيميائيات ثقافية متعددة الاهتمامات تحاول المراوغة والترابط مع تطورات الحياة، من مثل: سيمياء الأهواء، وسيمياء الكون، وسيمياء الجسد، وسيمياء الإيديولوجيا...

وتشكل السيمياء الثقافية- وفقاً لبعض التصورات- مزيجاً من السيميائية والنقد الثقافي، مع أنَّ لكل منهما خصوصيته المصطلحية والمنهجية، لأنها تتقاطع فيما بينهما، ويتكامل دورها، للوصول إلى لانهائية القراءة المنتجة للدلالة عبر بناء تكاملي، يجعل كلاً منها خطوة في طريق الوصول إلى عوالم النص المختلفة، والخوض في كل تفاصيل الحياة ونقدها.

---

(1) المرجع نفسه، ص 27.

(2) البنكي- محمد أحمد، دريدا عربياً، قراءة التفكيك في الفكر النقدي العربي، ص 29.

openkandil.com

فالنقد الثقافي "نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعاً لبحثه وتفكيره ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها"[1]، ويأتي نتيجة لنظرية ثقافية شاملة، تتسع لكل العلوم والمعارف وترى أن الثقافة (Culture) هي "البنية المركَّبة والمكونة من المعتقدات والأخلاق، والعادات، والمعرفة والفن، والأنشطة الأخرى"[2].

وبما أن النقاد لم يكونوا سجناء مفاهيم ومناهج محددة، فإننا نلحظ في النقد الثقافي أسماء باحثين عديدين امتدَّتْ أياديهم للنقد السيميائي رغم اختلاف منابعهم ومراميهم الإيديولوجية "ولهذا يحيل النقاد الثقافيون على أسماء تبدو كأنها لا تجتمع على جامع، فما الذي يجمع كارل ماركس بفلاديمير بروب، أو بجاك لاكان، مثلاً؟ وما الذي يجعل من أي. جي. غريماس، ناقداً ثقافياً شأنه شأن كلفورد غيرتس وفيكتور تيرنر مثلاً؟ وكيف يجتمع في النقد الثقافي ريموند وليمز بمارشال مكلوهان؟ والقصد من هذه التساؤلات إيضاح سعة هذه الفعالية"[3].

إن سمة الدينامية التي اتسم بها النقد الثقافي جعلته مثار انتقاد؛ فقد أُخِذ عليه تجاوزه النقد الأدبي، وذهابه إلى كل المعارف وتبنيه الكثير من اتجاهات النقد التي انحازت إلى مفهومٍ محددٍ دون آخر، تمثل الدفاع عن النقد الثقافي بأنه المنهج الشامل لما سبق الذي ارتبط فيه النقد بالفلسفة، التي هي منبته الأساسي، وأنه لم يقتصر على الأدب، فهو نقد يحتوي كل التشابكات النظرية مع حرية في التحرك داخله تتيح لأي ناقد التنظير داخل مجاله النقدي ضمن النظرة الخاصة به، إضافة للرؤية الشمولية للنقد الثقافي، وهو "بمثل هذا الاحتواء والسعة يلغي التفاوت السابق الذي استند إلى النظرية الأرسطية طويلاً، وأقام تمايزاته على أساسها"[4]. ولذلك فإن كون النقد الثقافي معرفة تندرج ضمنها الكثير من المتباينات، والاتجاهات، تجاوز النقد الأدبي الذي انحصر اهتمامه بالنص الأدبي.

ومع ذلك فإن الاهتمام بالأنساق في نقد النصوص لم يكن حكراً على النقد الثقافي، بل سنجده في السيمياء التي تنطَلِقُ من كون الظواهر الثقافية موضوعات تواصليةً وأنساقاً دلاليةً، وتُعَدُّ الأنظمةَ السيميائيةَ أنظمةَ نمذجةٍ(Typology Systems)

(1) الرويلي- ميجان، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 305.

(2) حسين- خالد، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، دار التكوين، دمشق، 2008، ط1، ص 191.

(3) الموسوي- محسن جاسم، النظرية والنقد الثقافي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005، ط1، ص 12.

(4) الموسوي- محسن جاسم، النظرية والنقد الثقافي، ص 37.

للعالم، أي أنها تضع العالم الخارجي في شكل تصور ذهني هو نسق، أو نموذج؛ وقد أكد (بيرس) أن "العلامة تتكوّن من وحدة ثلاثية المبنى: الدال والمدلول والمرجع"[1] وأتاح هذا الطرح انفتاحاً على المرجع ونبه إلى أهميته في قراءة النسق وتتبع السياقات وتوضيح دور التفسير في الربط بين الدال والمدلول.

إن المرجع هنا هو الإيديولوجيا الكامنة خلف النص، أو ما يسمى ما حول النص، مما يتيح وجودَ اهتمامٍ بخارجِ النصِّ Extra-textual، وليس التركيز على المكونات الداخلية له بمعزل عن ظروف الإنتاج، بل البحث في الخلفية الثقافية والإيديولوجية والاجتماعية والعقائدية والتاريخية والسياسية والاقتصادية المساعدة والمؤثرة في تشكيل النص أساساً، وهذا ما يصطلح عليه بـ: الأنساق الثقافية في النقد الثقافي، وهي عماد هذا النقد الذي اكترث بالتأويل من خلال تفسير ظواهر الحياة من خلالها، وهي "أنساق تظهر في كيفية استهلاك المنتج الثقافي العربي منذ القدم"[2]. فتصبح العلامات موظَّفة باتجاه نقل صورة العالم، إضافةً لوظيفتها في التوصيل، ويبدو "أن الاهتداء إلى الأنساق السيميائية الثقافية القديمة، يطلب لدى ثقافة بعض الشعوب مما يمكن وصفه بأساليب الصور الأيقونية، كما نقف عليها في كثير من الرسوم على الأحجار والجدران والجلود أو في الوشم أو حتى داخل اللغة نفسها وما إلى ذلك"[3].

وهذا ما يجعل (بيرس) بحسب بعض الباحثين منظراً ثقافياً، وهو الذي قال بأن علم الإشارات "يتكون من ثلاثة أنواع، الأيقونات/ التماثيل والتي تتصل بعملية التماثل، والأدلة والتي تتصل بالتواصل المنطقي، والنوع الثالث هو العلامات والتي هي عبارة عن رموز عرفية"[4]، فحديثه عن أنواع الإشارات من أيقونة وتماثيل ورموز كان بداية مهمة للتعبير عن مكونات النقد الثقافي الذي تجاوز اللغة.

إن أنواع التعبير المتعددة لا يمكن حصرها باللغة فقط؛ فهي تطال الألوان

(1) إبراهيم–عبدالله، سعيد الغانمي، عواد علي، معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص 106.

(2) الرويلي– ميجان، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص 310.

(3) يوسف– أحمد، السيميائيات التأويلية وفلسفة الأسلوب، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير– مارس، 2007، ص 50.

(4) أيزابرجر– أرثر، النقد الثقافي، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، تر: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، العدد603، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003، ط1، ص 127.

والصورة والصوت ومظاهر الطبيعة، والأزياء والديكور، وهذا جعل السيمياء الثقافية هي الأوْلى بالتعبير عنها، لكن لا تكتمل صورة الفهم والتأويل للعلامات من دون ربط العلامة بالمرجع، الذي تتكئ عليه أساساً "فالأحكام التي تتبلور داخلها لا يمكن أن تدرك إلا وفق ما تقتضيه السياقات الثقافية المخصوصة"[1]، وهذا ما ربط بين السيمياء والسياق Context والنسق والسنن.

وتعد جماعة "موسكو- تارتو" (Moscow - Tartu group)أول من استفاد من السيميائية الثقافية في تحليل الظواهر الحياتية والنصية، وخَلُصَت إلى أنه ليست كل رسالة باللغة الطبيعية نصّاً ثقافيّاً، وليس كل نصٍّ ثقافيٍّ نصّاً في اللغة الطبيعية، وأن الثقافة هي كم من النصوص يرتبط بسلسلة من الوظائف، إضافة إلى أن كل ثقافة دينامية تعرف نوعاً من التفاعل الناتج عن تنقل النصوص من نظام سيميائي إلى آخر[2].

وقد رافق النقد الثقافي مسوغات تفكيكية لإرجاع النص إلى مكوناته الأولية وتعدده وتحرره من المركزية[3]، إلا أن البحث في تاريخية هذه المكونات، وفهم النص في إطاره التاريخي والثقافي هو ما وضع النقاد في أزمة تأطير النص ومحدودية دلالته التي رفضها التفكيكيون، في حين يستطيع القارئ أن يسبغ على النص من ثقافته هو، ويفهمه بتاريخ جديد، وحالة كونية فضائية مختلفة لأن "هذه الصيغة تقسم عبء الاستمرارية التاريخية على الكلمة واستعمالها، في حين تؤكد سلباً فكرة الاستمرارية، بوصفها نقيض التعطيل. ويلاحظ أن هذا الخيار شبه الأصيل للمؤلف الذي يملأ الكتابة بقوة مبدعة سرعان ما يمتص في فيضان التاريخ ثانية"[4].

إن الانفتاح في القراءة والتأويل يبعد سلطة مركزية النص، وهيمنة القراءة المحدودة، و"المتتبع للمنظرين الثقافيين سيلحظ تبرمهم من تسييج النقد الثقافي بتحديدات وتعريفات لا طائل من ورائها، ما دام النقد الثقافي ليس سوى فعالية

---

(1) بنكراد- سعيد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2008، ط1، ص ص 9-10.

(2) انظر: المرابط- عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص ص 76-77.

(3) أكد محسن جاسم الموسوي في كتاب النظرية والنقد الثقافي، ص 131، أن "النزعة المذكورة في القراءة والنقد والنقد الثقافي ليست منقطعة عن التفكيكية منهجاً أو أسلوباً، فالتفكيك كما يقول ملر J.H.Miller ليس تخريباً وتشويهاً (لبنية النص) ما دام يهدف إلى إيضاح مكونات انهدام النص القائمة في داخله".

(4) راي- وليم، المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، تر: يوئيل يوسف عزيز، ص 192.

تفكيكية مفتوحة على استراتيجيات قرائية متنوعة ومختلفة وفقاً للموقع المعرفي الذي ينطلق منه الناقد الثقافي"[1]. وهو ما يجعل توقف النص عن التأويل، موتاً "إذ الاكتمال هو قرين الموت، ولهذا يكيدُ السردُ للاكتمالِ بمكائدَ متنوعةٍ من طرائقَ متغايرةٍ في بنينةِ الخطابِ، فهو منتجٌ وسيرورةٌ، موضوعٌ وفعلٌ، بنيةٌ وبنينةٌ، الأمرُ الذي يغدو بموجبه السردُ فتيّاً"[2]. وهذا ما أقرَّ به (سعيد بنكراد) لدى حديثه عن المعنى (Meaning) والوظيفة؛ فالمعنى يمكن أن يخضع لتأويلات ضمن المرجع الثقافي والتاريخي؛ بينما تُعَرَّف الوظيفة بأنها النشاط الذي يستخدم الرموز والعلامات والخطاطات للوصول لتعدد المعنى، وبهذا يمكن للمعنى أن يصبح غير محدود "استناداً إلى هذا المبدأ، وهو مبدأ يخص الإدراك وإنتاج المعاني على حد سواء، فإنَّ العالم الطبيعي الخالي من أي استثمار دلالي، لا يمكن أن يتأنسن إلا من خلال تحويل الأشياء إلى علامات، حينها، وحينها فقط تتخلص الأشياء من بعدها الوظيفي لكي تصبح خزاناً لكمية هائلة من المعاني التي تشير، خارج وظيفة التعيين أو ضداً عليها، إلى مواقع متنوعة داخل الامتدادات الرمزية اللامتناهية للكائن البشري في كل ما يحيط به"[3].

ترى التفكيكية أن ربط النص بسياقه الثقافي فحسب؛ يولد محدودية في الدلالة، في حين تعتمد الفرضية الدلالية على جانبين هما: النسق الثقافي المسبق للنص، والبنية الإيديولوجية للكاتب.

وقد قوَّضت نظريات التلقي والقراءة والتعددية المتعلقة بموت المؤلف، وولادة القارئ الرؤيتين السابقتين، وبناء على ذلك فقد تقاطعت السيمياء الثقافية مع ماسبق كله واتجهت نحو وجود التخمين: "فرضية للقراءة والتأويل"[4].

وقد توقف (إيكو) طويلاً عند كون النص متعدد القراءات، بسبب سعي القارئ إلى الإمساك بالعلامة؛ فإذا به أمام علامة جديدة "مما يحمل على القول إن المرء إذ يدرك علامة، فهذا معناه أن يتلقّن ما ينبغي له فعله من أجل أن ينتج موقفاً ملموساً يخوّله الحصولَ على الخبرة الحسية التي تتحصَّل من الموضوع، حجة العلامة

(1) حسين- خالد، شؤون العلامات من التشفير إلى التأويل، ص 192.

(2) حسين- خالد، في نظرية العنوان، مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية، التكوين، دمشق، 2007، ص 301.

(3) بنكراد- سعيد، السرد الروائي وتجربة المعنى، ص 10.

(4) بنكراد- سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 187.

ومرجعها"[1]. وهذا ما ذهب إليه النقد الثقافي في منظومته العامة التي تحول النص إلى سياقات ومراجع وفضاء ثقافي لا نهائي التأويلات "فما بين الذات القارئة التي تقوم بالتجسيد (بمفهوم جماليات التلقي)، أي تحيِيْن مجمل معطيات الموسوعة الثقافية وفق حاجات يفترضها النص لكي يسلم مفاتيح قراءته، وبين المعرفة التي قد نحصل عليها من خلال فعل التأويل، يتسرب "الانتقاء السياقي" كحد فاصل بين التأويل الذي لا تحكمه ضفاف ولا حدود، وبين مفهوم "المسار التأويلي""[2].

فإنْ كان النص هو ما فرض التأويل، لكن هذا التأويل لم يعد يكترث بالانضواء داخل حدود النص، بل يتجاوزه إلى كل ما يمكن أن يؤول من مظاهر الحياة الثقافية وعلاماتها، من صورة ولون وحرب وسلم ووجوه وأصوات.. وهذا يعود لأسباب تتعلق بحدوث الاختلافات في وجهات النظر حيث تؤول النصوص والعلامات الحياتية تبعاً للنسق والسياق لكل مؤوِّل ومؤوَّل، وهو ما أدى إلى ظهور مفهوم الاختلاف الثقافي في تحليل العلامات، الذي يتمثل في "الأساس المشترك والمنطقة الضائعة في الجدالات النقدية المعاصرة. فهي تدرك جميعاً أن مشكلة التفاعل الثقافي لا تظهر إلا عند الحدود الدالة للثقافات، حيث تُساء قراءة المعاني والقيم وتستعمل الدواليل لغير الغرض المخصصة له"[3].

إن هذه الإشكاليات الرئيسية هي ما جعل النقد الثقافي ضرورة قادمة، ولا بد منها في هذا الحراك العالمي، والتوجه نحو قراءات متعددة لمعظم ظواهر الحياة، والانتباه إلى مفهوم الآخر، وقراءات النسق، وقد رصد النقد الثقافي في أحد وجوهه التحول بصورة الآخر، إذ تبين أن قارئ (ألف ليلة وليلة) مثلاً، وإن كان مرتبطاً في أثناء قراءته بالنسق الثقافي المشكِّل لليالي الكتاب، يمكنه أن يأخذ ظاهرة النظرة الدونية للمرأة – كما يراها بعض الباحثين– على أنها علامة يدرسها ويعيد النظر بها، من خلال تأويلها في دلالات غير محدودة تنتمي لزمن ومكان ونسق ثقافي مغاير لكل الظروف التي كتب بها النص أساساً، ومن تلك الزاوية النقدية الجديدة سعى بعض النقاد للإمساك بهذه العلامة (النظرة الدونية للمرأة)، على أنها مرموزٌ نسقيٌّ ثقافيٌّ واجتماعيٌّ ودينيٌّ مغايرٌ للتلقي الحديث أو القديم في بعض جوانبه، حيث رُصِدَت العلامة هنا لتبدو

(1) إيكو– أمبرتو، القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 1996، ط1، ص 50.

(2) بنكراد– سعيد، السميائيات والتأويل، مدخل لسميائيات ش. س. بورس، ص 189.

(3) بابا– ك. هومي، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، العدد 569، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004، ط1، ص 94.

فيها: "النصيحة شاملة مانعة! مستقاة من النسق الثقافي العربي الذي يرى كل ما يصدر عن المرأة من كلام أو رأي أو مشورة هو جهل يضيع الرجل!"[1].

إن هذا المرموز لا يتعلق بالنسق الثقافي بمعنى المرجع، فالثقافة الإسلامية وإنْ ورد فيها بعض ما يشير إلى ذلك "المرأة شر كلها، وشر ما فيها أنها لا بد منها"[2]، لكن هذا السياق يتعارض مع هذه الرؤية (الدونية). وهي علامة مجسدة بسياق أحادي قُدِّم في النص، وأنيط بحالة تلقٍ محدودة، ولعل الأخذ بهذه المقولة والاقتداء بها في قراءة النص أو السياق وإهمال سواها يبعد النص عن الدقة؛ في حين نجد سياقاً مغايراً في نص آخر لـ (الإمام علي) قاله في زوجته "(ولقد كنت أنظر إلى وجهها فتنجلي عني الغموم والأحزان، .. فوالله ما أغضبتها ولا أكربتها على أمر حتى قبضها الله عز وجل..) لهذا يرسخ في الذهن أن الموروث الإسلامي بما فيه ألف ليلة وليلة يحتقر المرأة، وينظر إليها نظرة دونية!"[3].

فالنص هنا ليس هو المسؤول وحده عن هذا التأويل وتأييده! بل كذلك القارئ وسَننه الثقافي والمرجعي الخاص به، وهو ما دُعِيَ باستجابة القارئ وتعدد القراءات.

إن ارتباط النقد بكل مجالات الحياة ومظاهرها التي تبدو أمام المتلقي بصفتها علامات تُدْرَس، وتتقاطع مع التأويل، ومحددات النسق والسَنَن، وتدْرَس تفكيكياً وثقافياً... يجعل من السيمياء بكل مكوناتها الفلسفية، والنقد الثقافي بكل مآلاته وإحالاته، وتعدد مشاربه هما الأكثر التصاقاً ببعضهما بعضاً بصفتهما حقليْن متكامليْن، وهو ما سيؤول إليه النقد السيميائي من موالج ستنقله نقلة مختلفة، نحو دراسة العلامات في السيمياء الثقافية، وإنْ كانت هذه الخصوصية في العلاقة بينهما لاتنفي وجود علائق متينة مع علوم ومعارف أخرى.

وكانت السيميائية مدخلاً إلى النقد الثقافي، لكنها بقيت في إطار القراءة الجوهرانية للمعنى، فالسيمياء تقرّ بوجود معنى قار في النص، عليها تعويمه؛ في حين أن النقد الثقافي يحاول تفكيك الخطاب للإمساك بالنوى النووية التي تحرك الخطاب وتؤسس للإيديولوجيا.

---

(1) حمود- ماجدة، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2010، ط1، ص ص 255-256.

(2) بن أبي طالب- الإمام علي (ت40هـ)، نهج البلاغة، مااختاره الشريف الرضي من كلام الإمام علي بن أبي طالب، شرح محمد عبده، ج4، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ص 53.

(3) حمود- ماجدة، صورة الآخر في التراث العربي، ص ص 256-257.

الفصل الثاني

استقبال السيمياء
في الثقافة العربية

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً: إشكاليات الاستقبال

لا تنفصل إشكاليات استقبال السيمياء عن إشكاليات استقبال المناهج النقدية الأخرى، بل الثقافة الغربية بعامة، ولا سيما تداخل مصطلحاتها ومفاهيمها، وتشابكها مع مناهج أخرى، وتأخر الإفادة منها، وقد جاء وصولها في مرحلة ضعفت فيها أسئلة الهوية الثقافية، والتفسير المتشنج للحماس في الاستقبال، وكذلك في ظل الإعراض عن الثقافة المقروءة والإقبال على الثقافة الإلكترونية، وقد وصلت كثير من معطيات السيمياء إلى الثقافة العربية دون ضجيج، وترافق استقبالها مع استقبال النقد الثقافي والتأويل والتفكيك، والاهتمام بتعدّد القراءات، ونظريات الاستقبال.

تتنوع تلك الإشكاليات، وتتنامى، وتختلف من بيئة إلى بيئة، وتتجه لتشمل حقل المرسِل، والمستقبِل، وأداةَ التوصيل، من هنا فإن اختلاف السياق ينم على اختلاف ثقافة المرسِل عن المستقبِل، بينما تفرز أداة التوصيل مشكلة الترجمة، وإشكالية المصطلح الناجمة عن عدم الدقة، والتداخل الذي يمكن أن يحدث نتيجة عدم وضوح الرؤية، وغياب التعمق في معرفة الخصوصية. وقد عانت السيميائية بداية من تقبل وجودها بصفتها معرفة لها استقلاليتها، ومنهجاً نقدياً يمكن تطبيقه إجرائياً في النقد العربي الحديث، مع أن بذوراً منها موجودة في التراث العربي القديم، إلا أنّ هناك تبايناً بين مفهوميْها في النظريات الغربية والتراث العربي، وهذا التباين جعل النقاد يقفون محتارين بين الرغبة في خوض تجربة فكرية ومفهومية حديثة كلياً من جهة، والتخوف من الانسياق وراء النظريات الغربية من جهة أخرى، ويعتقد بعضهم أنّ إهمال الإشارة إلى بذورها التراثية العربية تقصير في الوفاء للتراث، لذا نجد أن الكثير من الباحثين الذين نظَّروا للسيميائية، أو قاموا بتطبيقها نقدياً على نصوص عربية استبقوا أبحاثهم بالتعريف بحضور بذورها في التراث العربي.

1- إشكالية تغير السياق الثقافي

اتصفت التطورات التي شـهدتها الحضارة الغربية بالقدرة على اسـتقبال ما ينتجه البحث العلمي من تحفيزات فكرية، وفلسفية، وتقنية، والرغبة في تحويل هذه القدرة إلى عمل مؤسساتي ذي طابع علمي، وتسارع خطواتها نحو استقبال النظريات العلمية منذ العصور الوسطى، وقدرتها على تطويرها وتجاوزها دون إطالة الوقوف عندها، بل عدّها خطوة نحو نظريات أخرى مخالفة أو مكملة أو مؤيدة للسابقة، ومن ثم مَأْسسة العمل البحثي وتطويره، وتحويله إلى تطبيق استفادت منه حضارتهم في تطوير عجلة التقانة والعلوم والأدب والنقد، وتجلى ذلك في أمثلة كثيرة[1].

إن الموازنـة بيـن الغـرب والعـرب في تلقي المناهج النقدية الجديدة يكشـف أنه تم تلقي المناهج التي نمتْ في التربة الغربية بشكل مألوف، لأنها نتيجة بحثية ضمن سـيرورة عمـل متسـارعة نحـو تطوير تلـك المناهج، لتتنـاول معظم مجـالات الحياة، وتحاول أن تصبح علماً بذاتها، في ظل الفاعلية المعرفية الغربية، و"عندما عمدنا إلى نقل هذه الاتجاهات النقدية الجديدة دون تأمين الوسيط، فإننا نكون قد حكمنا عليها بالمـوت سـلفاً"[2]. حيـث تـمَّ تلقـي المناهج فـي الثقافة العربية في إطـار ما تتلقاه من متغيرات تطرأ عليها بصفتها مُستقبِلاً لمنتجات الغرب بعامة، والمنتج الثقافي والأدبي والنقدي بخاصة، ضمن ظروف مغايرة كلياً، حيث يبقى لتلقي العرب للتطورات التقانية والعلمية والمعرفية وضع خاص.

ولـم يكن ما حدث مع السيمياء مختلفاً كثيراً، حيث "إن المتتبع للحركة السيميائية فـي العالـم العربـي، يـدرك أنها ظهرت في ظروف تختلف اختلافـاً يكاد يكون جذرياً عن تلك التي رافقت ولادتها في البحوث الأوروبية، وهو اختلاف نلمسه على جميع

(1) انظر: سعيدوني- ناصر الدين، باريس بين عبقرية المكان وفاعلية الإنسان، **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 38، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير- مارس، 2010، ص 22، حيث أشار إلى أن من أبرزها تجربة الطلاب الفرنسيين الذين كانوا يتلقون تعليمهم في الكاتدرائيات في تعليم أسقفي متنوع المشارب العلمية والفلسفية والإنسانية في القرن الثاني عشر، وقد استطاعوا تغيير تبعية التعليم من المؤسسات الدينية إلى المؤسسات المستقلة وشكل أولئك الطلبة "تجمعاً لهيئة تعليم تضم الطلبة والأساتذة أخذت شكل رابطة تجمع المعنيين بالعلم بمدينة باريس، فعرفت بالجامعة(Universitas) وأصبحت لها مكانة مميزة عندما وجدت مؤازرة من الملك فيليب أغسطس (Philippe-Auguaste) في نزاعها مع سكان باريس سنة 1192. ومنحها براءة ملكية يتعهد فيها بحمايتها ويدعو السكان إلى احترام حقوق أفرادها من طلبة وأساتذة".

(2) السيد- غسان، دراسات في الأدب المقارن والنقد، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1996، ص 95.

الأصعدة"[1].

ولعل هذا أحد الأسباب في تأخر الثقافة العربية في توليد نظريات نقدية، ومن ثمة المراوحة في موقع التلقي السلبي (Negative Receive) غالباً، وعدم تجاوز الإفادة من موجة التطور العلمي والمناهجي والمعرفي العالمية.

وقد يقع التقصير في مواكبة المناهج العلمية والمعرفية والنقدية العالمية في جزء كبير منه على القارئ العربي الراهن ذاته، الذي لم يستطع تمثل تلك الثقافة، على العكس من الأجيال السابقة – كما يرى بعض المهتمين– التي "امتلكت عقلية تركيبية هاضمة استطاعت أن توائم بين القديم والجديد، وبين الأصيل والوافد حتى ضاعت الحدود الفاصلة بين الثقافتين"[2].

والمشكلة الكبرى اليوم أن الانكفاء على الذات لم يعد مقبولاً، لأن ثورة الاتصالات والمعرفة ولّدت سياقاً ثقافياً اخترق قوانين التلقي وتجاوزها، وفتح الاحتمالات، وعصف بكل محاولات الانحسار أو التضييق أو العيش المنعزل، وأنشأ هذا حالة تستدعي الاعتراف بضرورة الوعي الثقافي، و"ما دمنا نعترف بالآثار العظيمة المترتبة على النقلة الكبرى في وسائل الاتصال، علينا أيضاً الاعتراف بأهمية تفعيل الوعي على أصعدة الأفراد والجماعات"[3].

وقد أمّنتْ التقنيات الحديثة المزيد من فرص التقدم للمتلقي العربي؛ فأصبح يستطيع شراء كتاب حديث في لحظة توقيعه في أميركا، ويرى بعضهم أن تلك التقنيات هي المعوّل عليها في جَسْر ما فات، وفتح باب الثقافة على مصراعيه، في مجال حيوي من مجالات سيمياء الكون؛ وهي "تمثل نموذجاً يحدد شروط إنتاج وتبادل وتلقي الأخبار"المعرفة" التي تتمظهر على شكل خطابات أدبية وجمالية ومؤسساتية وسياسية وغيرها، هذه الشروط التي تقترن عامة بسيرورة كونية هي خرق الحدود بين الفضاءات والمجالات السيميوطيقية"[4].

---

(1) بن مالك– رشيد (المترجم)، مجموعة من المؤلفين، السيميائية، الأصول، القواعد والتاريخ، (من مقدمة المترجم)، ص 15.

(2) أبو أحمد– حامد، نقد الحداثة، **كتاب الرياض**، العدد8، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، آب 1994، ص 101.

(3) الموسوي– محسن جاسم، النظرية والنقد الثقافي، ص 196.

(4) لوتمان– يوري، سيمياء الكون، تر: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2011، ط1، (من مقدمة المترجم)، ص 8.

2- إشكالية الترجمة

ترسَّخ عند مشتغلين كثيرين في الثقافة العربية أن الحلّ الأمثل لمواكبة القصور في مناهجنا المعرفية يكمن في الترجمة، فهي المنقذ لجَسْرِ الهُوَّة الثقافية العربية حيث "ستظل الترجمة الأدبية من القضايا المهمة في الحياة الثقافية العربية لأنها ليست فقط مكان حوار ولكنها أيضاً محاولة لإدراك موقعنا من حركة التاريخ، والترجمة تستدعي إن آجلاً أو عاجلاً التأليف"[1].

ولم يقتصر دور الترجمة على كونها طريقة بتلقي المعرفة في الثقافة العربية، بل أخذتْ دوراً أساسياً في الحضارة الغربية ذاتها، ولم تتوانَ عن تلقي المعرفة من أي جهة كانت، وبأي وسيلة، فالترجمة منذ القديم كانت إحدى الوسائل المعرفية لتطوير المفاهيم، وتحسين المستوى الثقافي، كما في الحضارة الفرنسية ذاتها التي تقبَّلت الترجمات، وأدب الرحلات؛ وسواها، لتوسَم باللغة المضياف حيث "تعتني بحوالي ثلاثة آلاف كلمة مأخوذة من لغات شديدة الاختلاف"[2].

توسَم بنية المجتمع العربي عند بعض المهتمين بأنها "بنية هجينة مؤلفة من جملة رواسب أو بقايا ومخلفات الأطوار التاريخية السابقة التي مرت على المنطقة، ومن جملة من مظاهر الحضارة أو التمدين الحديث التي استوردها هذا المجتمع ليرمم بها تخلفه ولم يقدر للبقايا أو للمظاهر أن تجعلا منه كياناً متماسكاً يتيح له أن يلج أفق العصر، وبكلمات أخرى ظل في الوضعين خارج مسيرة التاريخ"[3].

إن هذا التصور، وإنْ ظهر فيه الكثير من المبالغة، فيه توصيف لجوانب من الواقع الذي عانت منه معظم الدول العربية في ظل الرغبة بالتخلص من ثقل ترسبات الاحتلال، وفي الوقت نفسه ضرورة مهادنة تقبّل المحتل ذاته؛ بصفته مصدراً للمعرفة، مع تخوف من تجاوز النظرة إلى استقباله بصفته آخر، غالباً "ما يتحول إلى نوع من الاستهلاك أو التهالك الذي يؤدي إلى ضمور القدرة على الإبداع، نتيجة للاعتماد

(1) وصفي- هدى (المترجم)، برونل- ب، د. ماديلينا، و. د. كوتي، ج. م. جليكسون، النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999، (من مقدمة المترجمة)، ص 7.

(2) تريبس- ماري، الكلمات المسافرات، حكاية الكلمات الوافدة إلى الفرنسية، تر: منصور نجم حُديفي، مر: لبانة مشوح، المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر، دمشق، 2008، ط1، ص 20.

(3) اليافي- نعيم، أوهاج الحداثة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1993، ص 150.

على جاهزية المعطى الغربي"[1].

ربما لم تستطع الحضارة العربية الإفادة من حركة الترجمة بشكل مثمر، لكنها تبقى وسيلة لا بد منها مع كل ما نجده من مواقف متباينة؛ ومن الضروري تكثيف حضورها عبر وجود مؤسسات منهجية تنظم عمليات الترجمة، وتحدّد مسارها بحسب حاجة الثقافة العربية، ومن ثم تتداول الإنتاج المترجم ضمن هيئات تختص بالحوار في مضمون النصوص المترجمة، وتضعه في خانات المعرفة العربية بشكل يتناسب معها.

ولم يمنع التأخر في الترجمة من وصول المعارف الغربية، ومحاولة تبنيها، وصهرها مع التراث العربي في عملية تركيبية بطيئة حيناً، وسريعة حيناً آخر بحسب حاجة المجتمع للوافد، ورغبته في تشرب الجديد.

وتتحكم في عملية الاستقبال العربي للمنتج الثقافي الغربي عوامل من مثل تبني بعض الدول العربية الترجمةَ من لغة واحدة وإهمال سواها، كالترجمة عن الفرنسية في دول المغرب، كما تواجه الترجمة مشكلة كفاءة المترجِم بنقل روح النص المترجَم وإخلاصه له لا سيما الكتب الأدبية والنقدية، وتتسم بافتقاد التنظيم، وغياب جهود المؤسسات، وغلبة الجهود الارتجالية الفردية، وقلة ما تتم ترجمته، ومشاكل أخطاء الترجمة المقصودة وغير المقصودة[2].

وقد لاقت حركة الترجمة موقفاً عدائياً أحياناً لكونها عُدَّتْ نوعاً من التبعية، وإلغاء الهوية والحدود، وهو ما حاولت فعلياً بعض الثقافات القيام به، من خلال فرض هيمنتها وفكرها، وذلك استدعى دراستها باعتبارها ظاهرة خطيرة ولدت ما دعي بـ "الغرابة المقلقة، على الحدود ما بين الثقافات والأمم والهويات والعوالم، في الممر الواصل، على الجسر، في منطقة الهجنة، والتجاذب، والانشطار، في الفترة الزمنية الفاصلة، وما لا يقبل الترجمة في الخفاء، والعماء، وما يدرك، وذلك كيما تستكشف أن هذه اللحظات والأمكنة ذاتها هي زمنيات وفضاءات المعرفة، والإدراك، وقابلية الترجمة، حيث يجري تفاوض الهوية، وتنبع المقاومة، وتدخل الجدوى العالم"[3].

وحاولت النظريات التفكيكية أن تقصي المركزية (Central)؛ ووجدت النظرية

(1) البازعي- سعد، استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، 2004، ط1، ص 15.

(2) انظر: عبود- عبده، هجرة النصوص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1995، ط1، ص 14.

(3) بابا- ك. هومي، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، ص 9.

الثقافيـة – بوجـه مـن الوجوه– أن الحفاظ على خصوصية الثقافات وتنوعها هو الذي سيولّد التجدد والدلالات الثقافية المتعددة. ورافق ذلك تنبه الباحثين إلى دور الترجمة في تطوير حركة النقد العربي الحديث، عبر الاستيعاب الرصين والجاد والمنظم للفكر النقدي الأجنبي، ومن ثم دمج هذا الفكر في النقد الأدبي العربي[1].

وظهر تأخر الثقافة العربية في ترجمة السيمياء في معظم الكتب منها: كتب (أمبرتو إيكو) التي تأخرت ترجمتها كثيراً، فهذا كتاب (القارئ في الحكاية) الذي صدر بلغته الأصلية عام 1979، ترجم للعربية عام 1996، أما (السيميائية وفلسفة اللغة) الذي صدر عام 1989، فقد ترجم عام 2005، وكذلك (العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه) الصادر عـام 1973 ترجـم للعربيـة عـام 2007، أما أحدث توجهات السـيميائية من مثل كتاب: (ألجيـرداس. ج. غريمايـس) و(جـاك فونتنيـي) (سـيميائيات الأهـواء) فقد صدر بلغته الأصليـة 1991 وترجـم إلـى العربية عام 2010[2]، وكتاب (جوزيف كورتيس) (مدخل إلى السـيميائية السـردية والخطابية) صدر بلغته الأصلية عام 1976 وترجم إلى العربية عـام2007. وكتـاب (يـوري لوتمـان) (سـيمياء الكون) صدر بلغتـه الأصلية عام 1984 ووصل للقارئ العربي في هذا العام 2011.

لو لم يتح للسيمياء بعض المهتمين بها لتأخرت ترجمة أمهات الكتب فترة أطول، ومع ذلك نلاحظ تباعداً بين تأليف الكتاب وترجمته تصل إلى عشرين عاماً أحياناً، مما انعكس على الثقافة العربية المعنيّة سلباً؛ ففي الوقت الذي لاتزال تلك الثقافة تتهجّى السيمياء أنجزت الحضارة الغربية الكثير على مستوى النظريات الثقافية وما بعدها.

3– إشكالية المصطلح

يساعد المصطلح في التنفيذ الدقيق للإجراءات النقدية، ويدل على الاتجاه الذي يسلكه الناقد في إجرائه، ومدى تعمقه في مادته العلمية، ويبيّن جدية الناقد في بحثه.

ولا يختلف طُلّاب المعرفة حول ضرورة اسـتعمال المصطلح، لأن التهرب من اسـتخدامه أثناء الإجراء النقدي سـيؤدي إلى إنشـائية في اللغة الشـارحة، وربما يؤدي إلى غياب المنهجية، وسيضع الباحث في خانة الضعف.

بَيْـدَ أن كونـه ضروريـاً لايعفي مـن الاعتراف بأن الخطاب النقدي يعاني "قصوراً

(1) انظر: عبود– عبده، هجرة النصوص، ص 222.

(2) غريماس– ج. ألجيرداس، سيميائيات الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2010، ط1.

واضحاً في وعي المصطلح أو المصطلحات التي يستخدمها، ويعكس هذا القصور جانباً من الإشكاليات الكثيرة التي تسم معظم أنواع الممارسة النقدية في المشهد الثقافي العربي، وجانباً من خصائص التقاطب بين فعالية نقدية وأخرى، واستخدام وآخر للمصطلح الواحد، وربما لدى الناقد الواحد أيضاً"[1]. فتطبيق منهج بمصطلحات وافدة يعني أن الناقد لا يتحكم في المنهج، كما أن هيمنة المصطلح اللامنتمي والمصطلح النمطي الذي يصلح لكل منهج دليل يشكك في المنهج، مع "أن جلَّ الدراسات والبحوث متفقة على وصف المصطلحات اللسانية والسيميائية (التي هي المعين الأساس للقاموس النقدي الجديد) بالمشكلة"[2].

لا تقل القراءة الاصطلاحية لأي مادة معرفية أهمية عن غيرها من أنواع القراءات الأخرى، إنْ لم تكن تفوق كثيراً منها أحياناً، وهي بطبيعتها قراءة علمية لأنها تعالج مفردات واصطلاحات تنتمي إلى علم معين؛ تتبيَّن مدى دقتها، وكيفية تطبيقها.

اتُّهم الناقد العربي بأنه يستمدّ المصطلحات النقدية دفعة واحدة دون أن يعي مراحل الحركة النقدية الأخرى وحيثياتها وكيفية تشكلها، ويبدو أن "مشكلة نقدنا المعاصر مع اتجاهات النقد الأدبي الحديث هي بالأساس مشكلة الاستيعاب الواضح والمتكامل والدقيق لأسسها وأدواتها ومصطلحاتها"[3].

وقد رأى بعض النقاد الميالين للتراث أن المشكلة مع المصطلح مشكلة تغريب، وظنوا أن ما اصطلح عليه بالتعريب للمصطلح الأجنبي "شر لا بد منه وأنه الكيّ اللغوي الذي نلجأ إليه كآخر دواء حين يتأزم الداء!" [4].

وأثار في الوقت نفسه استخدام المصطلح بصيغته الأجنبية حفيظة الكثير من النقاد، لأن "هناك مصطلحات أُريدَ لها، في غياب الاجتهاد الجاد في تطوير العربية المعاصرة، وإنشاء لغة علمية جديدة عبرها: أن تظل مستعملة في لغاتها الغربية الرطينة، مثل "الإقونة" و"السيميوزة" و"الهرمينوطيقا".. فجئنا نحن إليها واجتهدنا في إيجاد

(1) الصالح- نضال، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص 19.

(2) وغليسي- يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2008، ط1، ص 53.

(3) بركات- وائل (المترجم)، مجموعة من المؤلفين، مفهومات في بنية النص، اللسانية، الشعرية، الأسلوبية، التناصية، (من مقدمة المترجم)، ص 4.

(4) وغليسي- يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص 459.

مقابلات لها باللغة العربية بناء على أصل اشتقاقها"[1]، وكما نرى فقد لجأ الناقد للتصحيح من وجهة نظره وبجهده الفردي، وهذا ما زاد من وجهات النظر فيما يعتور المصطلح النقدي من اختلافات "فكثيراً ما يقف المترجم حائراً أمام إيجاد مرادف باللغة العربية معبر وموازٍ تماماً لمصطلح نقدي أجنبي، فيضطر إلى اختيار واحد من أمرين: إبقاء المصطلح كما هو بلغته الأصلية مع بعض التعديل الصوتي، أو استخدام مرادف قريب، وفي كلا الأمرين لا نصل إلى مفهوم جليّ لما يريد المترجم التعبير عنه"[2].

في حين حاول بعض الباحثين اقتراح حلول للتخلص من قضية المصطلح الغريب عن الثقافة العربية، عبر استبداله بمصطلح عربي قديم، مشابه في المعنى للمصطلح الغربي الحديث، واعتماده في النقد؛ ولكن ذلك كان حلاً صعباً؛ لأن المفهوم والمنهج والنظرية التي يتكئ عليها المصطلح العربي القديم مختلفة عما يعتمد عليه المصطلح الغربي الحديث، ولا ننسى أن الحقبة الزمنية التي وُلد فيها المصطلح الحديث والبيئة والمكان مختلفة تماماً، وهذا ما أدى للكثير من الاستهجان لدى النقاد الحديثين، وسبَّب جدلاً كبيراً عدّه أصحاب هذا الحل تبرؤاً من الموروث، وتحيزاً للغرب ونظرياته[3].

وهناك من اعترض على استعارة المصطلحات الأجنبية و"قد آلت عندنا إلى تحولات تجعلها مختلفة، وبالتالي فهي جديدة، وتعريبنا لها ليس مجرد ترجمة، ولكنه تهجين وتوليد يفضي إلى مولد جديد"[4].

وهذا موقف يسجل للناقد لأن التشبث بالتشاؤم نحو وضع المصطلح وعدم تقبل المفردات الجديدة، والبقاء في دائرة الموروث، هو مما يسجل على كثير من القراء العرب لأن "تحنيط الكاتب للسان العربي هو ما جعله لا يدرك الدلالات الخفية للمفاهيم كالحتمية والمنهج... إن عدم اعترافه بتحديث وتبسيط اللغة انتقم منه ولم

(1) مرتاض- عبد الملك، قراءة النص، **كتاب الرياض**، العدد46/ 47، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، أكتوبر، نوفمبر، 1997، ص ص 30-31.

(2) بركات- وائل (المترجم)، مفهومات في بنية النص، اللسانية، الشعرية، الأسلوبية، التناصية، (من مقدمة المترجم)، ص 4.

(3) انظر: وغليسي- يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص ص 49-54.

(4) الغذامي- عبدالله محمد، ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية، النادي الأدبي الثقافي، جدة، 1992، ط1، ص 203.

يتـح لـه الفرصـة لفهـم ما قرأ مـن كتب. لأنه اقتصر على ترجمتهـا ترجمة لغوية ليس إلا، كيف يمكنه استكشـاف الدلالات وهو متنكر للسـيميائيات وللأنتربلوجيا الثقافية وغيرها؟"[1].

ومـن الثابـت أنـه عندما ينتقل المصطلح عن طريق الترجمة إلى اللغة العربية من لغته، ومصدره الأم تحدُث الإشكالية الأخطر؛ فنحن "نرتكب إثماً لا يغتفر حينما ننقل المصطلح النقدي الغربي، وهو مصطلح فلسفي بالدرجة الأولى، بكل عوالقه المعرفية إلى ثقافة مختلفة هي الثقافة العربية دون إدراك للاختلاف"[2].

وقـد يجـد المتابـع تداخلاً في المفاهيم الدلالية للمصطلح الواحد، وكذلك نعثر علـى مفهـوم واحـد لعـدد من المصطلحات؛ مما أوجد حالة تخبط في فهم المصطلح أحياناً.

وعندما يكون المفهوم أو النظرية الأساس، الذي ينبثق منه المصطلح غير واضح المعالم نصطدم برؤية ضبابية له، إذ نشأ في بيئة فكرية فلسفية تنحاز إلى منهجية العلم وتنظيراته الجدلية، وهو بالتالي يجب أن يكون بيِّناً لذهن المتلقي كجزءٍ منتمٍ لكلٍ؛ هو الخلفية المعرفية، وهذا ما دعا أحد النقاد لوصف الاضطراب في استعمال المصطلح النقدي بأنه "آفة فاشية يعاني منها النقد العربي المعاصر معاناة قاسية"[3].

ولعل اختلاف المصطلحات في أحد وجوهه ناجم عن هجرة المصطلح من بيئة لغوية ومعرفية إلى بيئة أخرى مغايرة؛ إذ يؤدي ذلك إلى إشكالية في حدوده ومفهومه، وكذلـك إلـى تبعيـة المصطلح للمنهج، ويبدأ الخلـل عندما يحاول بعض الباحثين زجّ المصطلح في منهج نقدي آخر، متغافلين عن العلاقة الوثيقة بين المنهج والمصطلح، لأنهما "صنوان ليس في وسع أحدهما أن يستغني عن الآخر أثناء الفعل النقدي، ودون ذلك يهتز الخطاب النقدي وتذهب ريحه ويفشـل في القيام بوظيفته"[4]. كما أن هذه الهجرة تؤدي إلى حيرة في تلقي المصطلح في البيئة الجديدة، فاعتماد بعض المثقفين

(1) أبو العز- عبد الفتاح، قضايا المنهج في العلوم الإنسانية المعاصرة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، ط1، ص 162.

(2) حمودة- عبد العزيز، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، **عالم المعرفة**، العدد 232، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نيسان، 1998، ص 63.

(3) رومية- وهب، شعرنا القديم والنقد الجديد، **عالم المعرفة**، العدد 207، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، آذار1996، ص 40.

(4) وغليسي- يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص 56.

اللغة الإنكليزية في ترجماتهم، يغاير تلقي المصطلح بالنسبة لمن يعتمد اللغة الفرنسية.

وقد ذهب الداعون إلى ضرورة الربط بين المصطلح والمنهج كي يتسنى للمصطلح تأدية وظيفته، واشترطوا وجوب أن يتوفر فيه شرطان أساسيان: "الأول: تمثيل كل مفهوم.. بمصطلح مستقل. والآخر: عدم تمثيل المفهوم.. الواحد بأكثر من مصطلح واحد"[1]. وهذا العبء لا يقع على عاتق الباحث وحده، بل إن غياب ثقافة استخدام المصطلح، وغياب ثقافة المنهج من الحياة الثقافية بعامة أسهم في توليد هذه الإشكاليات، إضافة إلى قلة المؤسسات العلمية المنسقة للجهود المتخصصة بتعريف المصطلح، وتهيئته للتداول، ما جعل الميدان مفتوحاً للاجتهادات الفردية التي ستقود بالضرورة إلى "تضارب الخطابات النقدية وتضليل القارئ في كثير من القضايا المتصلة بالأطر المفهومية للمصطلح في علاقاتها بالسياقات التي ترد فيها"[2].

والإشكاليات التي يعاني منها المصطلح السيميائي لاتختلف عن سواها كثيراً؛ إلا بخصوصية المنهج السيميائي ذاته، ومن الضروري إبَّان الإفادة من المصطلح السيميائي مراعاة نشأته الطبيعية في الغرب، والاكتراث بمدى ملاءمته الإنتاج الأدبي العربي، وهو في ذلك مثله مثل بقية المصطلحات التي تصلنا عبر الترجمة، حيث إن "المشكلة الأساسية في عملية الترجمة بين لغتين هي محاولة إيجاد لفظ ما في لغة ما مطابق للفظ آخر في لغة أخرى. وهذا يفترض من البداية تطابق اللغتين في التصنيف، وفي الخلفيات الثقافية والاجتماعية، وفي مجازاتها واستخداماتها اللغوية، وفي أخيلتها وتصوراتها.. وهو ما لا يتحقق ولا يمكن أن يتحقق مطلقاً"[3].

كما تداخلت المصطلحات السيميائية داخل المنهج مع غيرها من مصطلحات المناهج النقدية الأخرى، فمرة يستخدم الباحث مصطلحاً بنيوياً ويعتبر ذلك مألوفاً؛ لكون البنيوية تقترب في بعض مفاهيمها الشكلية من السيميائية، ومرة يُسْتَخْدَمُ المصطلح التفكيكي نتيجة الظن أن ما اعتنت به التفكيكية من غنى إيديولوجي وثقافي يتقارب مع السيميائية التي انفتحت على كل أنواع العلوم والثقافات..[4] مع أنه "من أمارات القصور المنهجي والفوضى النقدية أن نطبق منهجاً نقدياً باستخدام مصطلحات

(1) بوطيب- عبدالعالي، إشكالية المصطلح في النقد الروائي العربي، **فصول، مجلة النقد الأدبي**، العدد 70، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، شتاء ربيع2007، ص 304.

(2) بن مالك- رشيد، السيميائيات السردية، دار مجدلاوي، عمان، 2006، ط1، ص 28.

(3) عمر- أحمد مختار، علم الدلالة، دار العروبة، الكويت، 1982، ط1، ص 251.

(4) انظر: وغليسي- يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص ص 242-309.

غيره من المناهج"[1].

والأمر لايبتعد كثيراً في سياق الحديث عن "المصطلح السيميائي كلفظ أو مركب لفظي منزاح عن دلالته المعجمية الأولى، متفق عليه من أهل الاختصاص ومختلف بشأنه تارة أخرى"[2].

والاختلاط بين المصطلحات لا يطال مصطلحات المنهج السيميائي فحسب، بل نجد الاختلاف في تسمية السيميائية ذاتها بين المتحمسين لـ (سوسير) والمشايعين لـ (بيرس) مع أنه ليس ثمة وثيقة تؤكد لقاء أو اطلاع أحد المؤسسين على أعمال الآخر، ومن هنا نجد أن معظم النقاد الفرنسيين قد انتصروا لمصطلح السيميولوجيا (Semiology) السوسيري، ومعظم النقاد الإنكليز والأمريكيين ذهبوا لاستعمال مصطلح السيموطيقا (Semiotics) الذي استخدمه (بيرس) ومن ثم أكد حضوره (جون لوك)، وكلا التسميتين دالان لمدلول واحد يفهم منه أنه علم العلامات[3].

ومتابعة ماكتب حول استقبال مفهوم السيميائية في الثقافة العربية، يكشف أن من استعمل مصطلح السيميوطيقا غالباً كان منبع فهمه لها من (بيرس) الأميريكي الذي نظر إليها انطلاقاً من كونها مفهوماً "يحيل على مفاهيم فلسفية شاملة وعلامات غير لغوية"[4].

وأما مستعملو مصطلح السيمولوجيا فقد كان منبع ثقافتهم غالباً من جهة (سوسير) والنقاد الأوربيين، وهي عندهم "معطى ثقافي أوروبي هو أدنى إلى العلامات اللغوية، والمجال الألسني عموماً، منه إلى أي مجال آخر"[5].

كما نجد أنّ فريقاً ذهب إلى استعمال مفردات إبان ترجمته للمصطلح تفيد بمواءمته بين المصطلحين، مع إدراكه أن السيميولوجيا تعني الحصول على ثقافة أوربية، واستعمال مصطلح السيميوطيقا يشير إلى ثقافة أمريكية غالباً[6].

---

(1) المرجع نفسه، ص 57.

(2) انظر: بركات- وائل، غسان السيد، نجاح هارون، اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 2004- 2005، ص ص 338-339.

(3) انظر: بو خاتم- مولاي علي، مصطلحات النقد العربي السيماءوي/ الإشكالية والأصول والامتداد، ص ص 174- 178.

(4) وغليسي- يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص 228.

(5) المرجع نفسه، ص 228.

(6) انظر: بركة- بسام، معجم اللسانية، (فرنسي- عربي)، منشورات جرّوس- برس، طرابلس، ط1، 1985، ص 186.

وإذا تأملنا ما صدر عن السيمياء في الثقافة العربية من قبل عدد من الباحثين سنجد أنهم فضَّلوا استعمال مصطلح السيميائية بهدف تعريب المصطلح وتوطينه في الثقافة العربية، وهو اجتهاد له مشروعيته بما أنه ينم على حالة من الوعي والمعرفة بجذر المصطلح ودلالاته غربياً وعربياً، بل إن ثمة من رأى أننا يجب أن ننأى عن استعمال سواه لأسباب فصّل فيها بعد أن استعرض تاريخ السيمياء والمصطلحات التي استعملت للتعبير عنها والفروق بينها[1].

وربما يشكل التنوع في استعمال مصطلحات السيميائية والسيموطيقا والسيمولوجيا في أحد وجوهه نوعاً من أنواع الثراء والغنى والتعدد الفكري والمنهجي يشي بجدية من قبل الباحثين والمترجمين في تأصيل هذا المنهج وتفاصيله، وبلورة رؤاه ومفاهيمه في الثقافة العربية المعاصرة، في حين أن هناك من رأى "أن تعدد التسميات هنا لايعبر عن حيوية بقدر مايكشف عن فوضى، في التصور الفكري كما في المنهج، لا بد من الحد من آثارها"[2].

ثانياً: الرواية العربية والسيمياء

حققت السيمياء على المستوى المنهجي انفتاحاً على عدد من العلوم والمعارف، إلا أن الحديث عن دخولها إلى مواطن الأدب له حال مختلفة؛ فعندما أراد النقد الأدبي الولوج إلى عوالمها، وجعلها منهجاً نقدياً، يفاد منه في قراءة أجناس الأدب وقع في أزمة سببها أن العلوم الإنسانية غير محددة بصفات مؤدلجة، كما هي حال العلوم الأخرى الطبيعية أو الرياضية أو اللاهوتية.. "فالانشغال بالإنسان جعل تلك العلوم انعكاساً لمشكلات الوضع الإنساني بما يعج به من غموض واختلاف وصراع. وإذا كان هذا الوضع يمس كل العلوم بما فيها ما نسميه "العلوم البحتة"، لأنها جميعاً إنسانية المنبع والمصب، في نهاية المطاف، فإن العلوم المتصلة مباشرة بأوضاع الإنسان وهمومه، ومنها تلك التي تعنى بالأدب ونقده أحرى بالتأثر في بنيتها وأهدافها ولغتها وأساليب بحثها بما يعتور تلك الأوضاع من اضطراب وتناقض"[3].

ولعل هذا ماجعل اللسانيات الأكثر قرباً للعلوم الإنسانية لكون منبتها هو اللغة،

---

(1) الزهراني- معجب، في المقاربة السيميائية، **علامات في النقد الأدبي**، الجزء الثاني، المجلد الأول، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ديسمبر،1991، ص ص 148-149.

(2) المرجع نفسه، ص 147.

(3) البازعي- سعد، استقبال الآخر، الغرب في النقد العربي الحديث، ص 218.

ولاشتغالها عليها مما أتاح للمناهج النقدية الإفادة منها.

وقد ربطَ (سوسير) بين السيميائية والأدب في التحليل بتوضيح العلائق بين السيميائية واللسانيات حيث جعلها فرعاً من السيمياء وقاطعَ "بين اللغة بحصر المعنى "أنظمة الاتصال اللسانية" وبين الدلالية "أنظمة الاتصال غير اللسانية""[1]. لكن (بارت) حلم بـ "إخراج السيمولوجيا عن إطارها اللساني"[2]، غير أنه ربط بين اللسان والخطاب النقدي السيميائي الذي عده جزءاً من اللسان، واعتبر أن مهمة السيمياء تنقية الخطاب، فهي "ذلك العمل الذي يصفي اللسان، ويطهر اللسانيات، وينقي الخطاب مما يعلق به، أي من الرغبات والمخاوف والإغراءات والعواطف والاحتجاجات والاعتذارات والاعتداءات والنغمات وكل ما تنطوي عليه اللغة الحية"[3].

ويعدّ (غريماس) من أكثر الباحثين الذين عمقوا رؤى السيميائية السردية، إذ أكد ضرورة أن يكون تحليل النصوص "محايثاً مقتصراً على فحص الاشتغال النصي لعناصر المعنى، دون اعتبار للعلاقة التي يقيمها النص مع أي عنصر خارجي عنه"[4].

وقد حاول أن يتقاطع مع مشروع (بروب) الوظيفي[5]، وأن يبني بعض نتائجه على جهوده؛ لأن مشروع (غريماس) ما كان له أن "يرى النور لولا وجود العمل الجبار الذي قام به بروب"[6].

ومما يسجل لمشروعه شموليته في التصور، وقدرته على التحليل، وكذلك إمكانيته استيعاب عناصر شتى تنتمي إلى عدة نظريات سردية سابقة لأنه "يفكر في العلاقات بين الوحدات أكثر مما يفكر في خصائص الوحدات ذاتها".[7]

---

(1) مونان، ج، (اللسانية)، مفهومات في بنية النص/ اللسانية، الشعرية، الأسلوبية، التناصية، تر: وائل بركات، ص 20.

(2) بركات– وائل، غسان السيد، نجاح هارون، اتجاهات نقدية حديثة ومعاصرة، ص 344.

(3) بارت– رولان، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1986، ط2، ص 23.

(4) بوطيب– عبد العالي: مستويات دراسة النص الروائي، مطبعة الأمنية، الرباط، 1999، ص 106.

(5) انظر: برنس– جيرالد، قاموس السرديات، تر: السيد إمام، دار ميريت، القاهرة، 2003، ط1، ص ص 79–80.

(6) بنكراد – سعيد، السميائيات السردية، مدخل نظري، **كتاب الجيب**، الكتاب 29، منشورات الزمن، الدار البيضاء، 2009، ط1، ص 34.

(7) رامان– سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 98.

وبهذا انصبَّ اهتمامه على تناول المعنى النصي من خلال المستوى السطحي على زاويتين: "الزاوية السطحية التي يتم فيها الاعتماد على المكون السردي الذي ينظم تتابع حالات الشخصيات وتحولاتها، والمكون الخطابي الذي يتحكم في تسلسل الصور وآثار المعنى. وفي الزاوية العميقة ترصد شبكة العلاقات التي تنظم قيم المعنى حسب العلاقات التي تقيمها"[1].

وهذا ينسجم مع مفهوم النقد الأدبي المعاصر الذي بات يدل على حركة أشمل من كونه تقييماً لجودة العمل وسوئه؛ منتقلاً إلى مرحلة الكشف والتعريف بالدلالات الكامنة داخل مجاهل النص الأدبية، والوصول إلى التأويل والقراءات المتعددة وإنتاج الدلالة، مع أن هناك من يريد حصر غاياته بأنها "شرح وتقييم الأعمال الأدبية والكتاب السابقين والحاليين"[2].

والنظر فيما قدمته بعض المناهج النقدية قبل الوصول إلى السيميائية يكشف أنه أُخِذَ على الشكلانية الاهتمام المركَّز بالشكل، ولعل أحد عوامل نشوئها اهتمام المناهج النقدية السابقة لها بالمعنى وما حوله، وقد نجح (بروب) في ربط الشكلانية بالبنيوية عبر تقسيمه الحكاية إلى مستويات (واحد وثلاثين مستوى) بحسب ما يحمله كل مقطع في الحكاية من مضمون يقترن بالشخصية في متتاليات سردية، وقد أعاد لتكاتف المضمون مع الشكل الضوءَ، وهذه المضامين هي "التي تمثل الوظائف المتتابعة التي تشغلها الشخصيات (ابتعاد، حظر، خرق الحظر، تلقي الغرض السحري، عودة...) "[3].

وقد كان انشغال (بروب) بالوظيفة مثار اعتراض (شتراوس)، لأنه ردَّ مجمل الحكايات إلى مضامين محددة مسبقاً بحسب تصنيفه، فـ "عندما نعتبر قائمة أسماء "الوظائف" البروبية، يكون لدينا انطباع بأنها من خلال تجميع المتغيرات وتعميم دلالاتها تهدف، في ذهنه، إلى تلخيص مختلف متتاليات الحكاية أكثر منه تعيين

(1) كورتيس- جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، (من مقدمة جميل حمداوي للكتاب)، ص 12.

(2) برونل- ب، د. ماديلينا، و. د. كوتي، ج. م. جليكسون، النقد الأدبي، تر: هدى وصفي، ص 43.

(3) فالانسي- جيزيل، (النقد النصي)، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تحرير: دانييل برجيز، تر: رضوان ظاظا، مرا: المنصف الشنوفي، **عالم المعرفة**، العدد221، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أيار، 1997، ص 218.

مختلف أنماط النشاطات التي يُظهر تتابُعها الحكايةَ كبرنامج مُنَظم"[1].

فـ (بروب) جعل مسار الوظيفة التي ينهض بها العامل (Actant) هو الشخصية (Character) عندما تسند له الوظيفة (Function) يسير باتجاه واحد كأن يقول: خروج العامل من فضاء مكاني محدد هو خروج، دون الانتباه إلى المقابل الضد للخروج، وهو الوصول إلى فضاء آخر، وهذا ما يشكل متضادات تغني السرد، وتبعده عن التلخيص المجحف بحق المعنى وتأويلاته إلى أن جاءت السيميائية التي حاولت أن توائم بين الشكل (Form) والمضمون، ومختلف أنواع المعارف والعلوم.

ودعا بعض المشتغلين في هذا المنهج إلى ضرورة التركيز على الجوهر الداخلي للنص الأدبي، لوجود نمط خاص ونظام متعلق به، فالأدب عندهم "كيان لغوي مستقل أو جسد لغوي أو نظام من الرموز والدلالات التي تولد في النص وتعيش فيه، ولا صلة لها بخارج النص"[2].

والأدب بحسب رؤيتهم لا يقول شيئاً عن المجتمع ولا عن نفسية الأديب، بل موضوعه هو الأدب ذاته، ولكن هذه الرؤية ليست عشوائية، بل تلتزم خطة منهجية في التوصل للنتائج التي يرمي إليها الإجراء.

إذاً؛ ما هو الإجراء المنهجي الذي يلتزمه المنهج بعد أن رسم مفهومه ومنطلقاته النظرية؟

يَعدُّ النقد السيميائي الأدبَ نظاماً للعلاماتSystem of Signes) (يستند إلى أنظمة اللغة، لأن اللغة هي الوعاء الذي يحتوي الرموز الأدبية والمعايير النقدية، وهذا ما حاول (بارت) أن يبرزه؛ فربطَ بين اللغة والخطاب (Discours) ربطاً مباشراً "أعتقد أن اللغة من وجهة النظر التي ننظر من خلالها نحن الآن لا تنفصل عن الخطاب.. والشيء اللغوي لا يمكن أن يقوم عند حدود الجملة ولا أن ينحصر فيها، فليست الفونيمات والكلمات والعلاقات الصرفية هي التي تخضع وحدها لنظام حرية مضبوطة ما دمنا لا نستطيع التركيب بينها كيفما اتفق، إن الخطاب في مجموعة هو الذي يخضع بشبكة من القواعد والإكراهات والضغوط التي تكون كثيفة ضبابية على المستوى البلاغي، دقيقة حادة على المستوى النحوي، فبين اللسان والخطاب مد وجزر"[3].

(1) كورتيس- جوزيف، مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، (من مقدمة غريماس للكتاب)، ص 17.

(2) المرجع نفسه، ص 139.

(3) بارت- رولان، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بنعبد العالي، ص 22.

إن الرواية – وفقاً للسيميائيين– أدب يُنْتَج بصفته مركباً دلالياً (Semantic Syntagm) و"يتضح أنه لا يمكن أن ينتج إلا عبر مراحل، يتحول فيها (الدليل) من ممثل إلى مؤول... بمعنى أنه يتدرج عبر مراحل تبدأ في صورة فكرة... إلى حدود لحظة تحوله النهائي إلى ممثل إظهاري"[1].

فالرواية بصفتها منتجاً لا بد أن تمر بمراحل إنتاجية، وتحتوي وظائف بروبية، وسياقات ثقافية ومعنوية، داخل نسيج من الحكاية، والحبكة، والأدلة اللغوية التي تتضافر لتتحول من صيغ تجريدية إلى موضوعات دينامية، ومن مراحل إنتاجها بصفتها أدلة إلى مؤولات[2].

وهذا يفتح الباب لفهم مساوق لهيئة تشكل النص الروائي وتكونه، حيث إن "قواعد الجنس نفسها ليست إلا عبارة عن مؤولات – برهانية مجردة، فإنها تنضاف بشكل محايث ومتراص إلى الشيء العملي (أي إلى الفكرة) لكنها وهي تنضاف إلى الشيء العملي، لاتنضاف فقط في مستوى بعينه، بل تحايث كل مراحل بنائه الإنتاجي"[3].

وقد خاض هؤلاء تجربة الغوص في الرواية من خلال الإجراء السيميائي بما أنها جنس أدبي، منطلقين من قراءة أوليات أدبيتها، وهو (الانزياح) الذي يحول اللغة التوصيلية إلى نص أدبي، وذلك باستقراء مظاهره بصفتها علامة ذات دلالة تتحول لمؤوّلات ومفسرات لا نهائية "ذلك أن الأدب يحوّل اللغة الاعتيادية ويشددها، وينحرف بصورة منظمة عن الكلام اليومي"[4].

ونرى على صعيد الرواية والنصوص السردية عامة أن (غريماس) كان الأكثر حرصاً على الوصول إلى صيغة وافية حيث "تتأسس أبحاث غريماس حول السرد على الاستعادة النقدية لأعمال (بروب) ووضعها، حصراً ضمن منظور سيميائي وبنيوي"[5].

ويعود الفضل في تنبه السيميائية إلى وجود المتضادات والمتقابلات إلى

(1) محفوظ– عبد اللطيف، آليات إنتاج النص الروائي، نحو تصور سيميائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2008، ط1، ص 26.

(2) هذا ما رآه كل من (عبد اللطيف محفوظ) و(سعيد بنكراد) و(رشيد بن مالك) في كتبهم المختلفة..

(3) محفوظ– عبد اللطيف، المعنى وفرضيات الإنتاج، مقاربة سيميائية في روايات نجيب محفوظ، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، 2008، ط1، ص 22.

(4) إيغلتون– تيري، نظرية الأدب، تر: ثائر ديب، ص 11.

(5) فالانسي– جيزيل، (النقد النصي)، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، تحرير: دانييل برجيز، تر: رضوان ظاظا، ص 219.

(سوسير) من خلال متلفظاته النحوية في الدال والمدلول، ومن ثم محوريْ الاستدلال والتركيب، وصولاً إلى (بيرس) الذي جعل الثنائية بين الدال والمدلول ضرورة إجرائية تفرض نمطاً ثالثاً، لا بد منه في الإجراء، فخرج بمقولاته الثلاث الشهيرة سيميائياً.

وقد تمكنت السيميائية "إثر انفتاحها على المستحدثات المنهجية والمعرفية، أن تتحرر من القيود البنيوية وإيديولوجيتها لمقاربة الدلالة في علاقتها بمقاصد المتلفظ ومساعيه التواصلية والتداولية"[1]. ومن ثم تجاوز التوزيع الوظيفي إلى الخطاطة السردية وسط اهتمام سيميائي بالرواية، أفرز فرعاً معرفياً سيميائياً أطلق عليه (السيميائيات السردية)، التي تحاول إجراء عملية تسريدٍ للنموذج التأسيسي للنص السردي "من خلال إعطاء بعد سردي لمقولة بالغة العمومية والتجريد"[2]، ومن ثم إخضاع تلك المقولة لعملية التسريد.

فالنموذج التأسيسي يفترض وجود مقولات تشكل وحدات صغرى، كمقولة الحب أو الكره التي يعبر عنها بمَعَانِمَ ضدية، فتكون "الشروط الأساسية والأولية للإمساك بأي كون دلالي دونما اهتمام بمادة التمظهر"[3]. وهذه المقولات تنتظم ضمن مستوى سطحي يكوِّن المفردات الناظمة، والمستوى العميق هو المستوى الناظم لكل ما سبق في إطار منظومة فنية ما؛ قد تكون الرواية أحدها...

يربط (غريماس) السيميائيات السردية بعلامات رمزية دلالية، ولا يهمل المعنى، فهو "ينظر إلى الحكاية باعتبارها بنية تحتوي على ذاكرة تنظم مجموع العناصر المستترة منها والظاهرة"[4]. وقد أدخل نظام العوامل، ووازن بين الشكل والمضمون داخل العالم القصصي، فكانت الشخصية بمكونيْها الوظيفي والوصفي إحدى مكونات السرد، وقد أخضعها لأنظمته؛ فبات "بإمكاننا القول بأن الوظيفة والمواصفة مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً حيث يتم الانتقال من الوظيفة كفعل متحقق إلى المواصفة كفعل محتمل، ومن المواصفة إلى الوظيفة كانتقال من الاحتمال إلى التحقق"[5]. إنّ هذه السيرورة

(1) الداهي- محمد، سيميائية السرد، بحث في الوجود السيميائي المتجانس، رؤية، القاهرة، 2009، ط1، ص 8.

(2) بنكراد- سعيد، السميائيات السردية، مدخل نظري، ص 51.

(3) المرجع نفسه، ص 53.

(4) المرجع نفسه، ص 38.

(5) بنكراد- سعيد، سيمولوجية الشخصيات السردية (رواية "الشراع والعاصفة" لحنا مينة نموذجاً)، ص 79.

السيميائية هي من أهم ما تناوله (غريماس)، إضافة إلى"المربع السيميائي" الذي استنتجه من مربع (أرسطو) القائم على علاقات أربع: التناقض (Contrariety)، التضاد (Contradiction)، التكامل (Integration)، التشاكل (Isotopy)[1] "حيث انشغلت نظرية غريماس السردية باستجلاء تفاصيل الانتظام السطحي للملفوظات بالموازاة مع خوالج العمق الدلالي، وبناء على ذلك طفقت تستثمر المفاهيم التحليلية للخطاب سعياً لتأسيس نحو رَتْقي للسرد"[2].

رصدت السيرورة التغير الطارئ على العلامة أثناء تحولها من مقولة سردية إلى مَعْنَم؛ فإنه لا بد لها من الاقتران بالخطاطة السردية، التي لها علاقة بالإنجاز المتبدي من التحيين (Actualization) إلى التحقق(Verification) ، وبهذا يصبح النص السردي قابلاً للإجراءات السيميائية السردية، وذلك بالتعرف إلى الشكل الظاهري للعمل بداية، منتجاً ومكتوباً، ومن ثم النظر في بنياته السطحية؛ أي تمظهراته اللغوية وعلاقاته النحوية والصرفية، والبنيات العميقة التي هي "بنيات تتحدد داخلها الكينونة الإنسانية بتنوع أشكال حضورها الجماعي والفردي، وهو ما يشير إلى ضرورة تحديد الشروط الموضوعية الخاصة بالموضوعات السيميائية"[3]. ويقصد بها عمق الفكرة، كما هي في صورتها الأولى في ذهن المؤلف قبل خروجها إلى النور، وتجسّدها نصاً أدبياً.

وقد استطاعت السيمياء أن تقدم طرائق مختلفة لتحليل الرواية، حيث عدّت النص الروائي علامة كبرى، تحيل إلى أكوان دلالية صغرى، تقوم السيمياء بتقطيعها بأساليب مختلفة عن سواها من المناهج، وتنظر إلى الشخصية بصفتها علامة جزئية من نسيج علاماتي يتكون تدريجياً، من خلال تقطيعها إلى نموذج عاملي (status actantial)، عندما يضاف إليه مستوى وظيفي ومستوى وصفي يتحول من نموذج عاملي إلى ممثل (Actor)، وحينها يُوْسَم باسم يتميز به، ويصل إلى مرحلة الفَرْدَنَة (Indivdual).

(1) انظر: وغليسي- يوسف، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، ص ص 264-269. يشير إلى أن مصطلح التشاكل (Isotopie) اقتبسه (غريماس) من الفيزياء والكيمياء، وقد حصل اختلاف في ترجمته بين (التناظر): عند: سعيد علوش في (معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة)، ص 151، و(التناظر الدلالي): عند: محمد عناني في (المصطلحات الأدبية الحديثة)، ص 47 (من المعجم)، و(تكرار الفئات الدلالية)، عند بسام بركة، في: (معجم المصطلحات الألسنية)، ص 156، لكنه رغم ترجمته بالتشاكل إلا أنه إن عدنا إلى ما يوحيه مفهوم المصطلح الأجنبي سنجد أن المقصود منه التساوي وليس الإشكال والاختلاف.

(2) شيباني- فهيم عبد القادر، السيميائيات العامة، أسسها ومفاهيمها، ص 162.

(3) بنكراد- سعيد، السميائيات السردية، مدخل نظري، ص 44.

أما موقع الشخصية ضمن المستوى التركيبي (synthetic level)للشخصيات؛ فإنه يحدد كونها ذاتاً مرسلة للحدث، أو ذاتاً مضادة، أو شخصية مساعدة، أو أن تكون شخصية ساكنة ليس لها أي دور، وبطريقة مشابهة يمكن أن تُدْرَس عناصر الرواية الأخرى.

إذاً؛ استطاع التحليل السيميائي باتجاهاته المختلفة أن يفرز مصطلحات خاصة به، وطرائق في النظر إلى مكونات الرواية بصفتها مفردات ضمن المستوى التركيبي لها، ويتكون الكون الدلالي العام لها من خلال تجاور مفردات هذه الرواية، حيث تقوم السيمياء بربطه بمكوناته الخارجية، وبذلك تمكنت من تلبية الجوانب الداخلية للنص بأوجهها الفنية والدلالية والتركيبية والوظيفية عبر الاستدلال والتركيب، وفي الوقت نفسه انفتحت على المكون الخارجي لأن العالم كله علامة، يمكن تقطيعه كما النص الروائي، وإقامة علاقات تشابكية مع مكونات هذا النص للخروج بسيرورة دلالية سيميائية لاتنتهي، وبذلك يتحقق البعد الثلاثي للعلامة: الدال والمدلول والمرجع.

ثالثاً: حركة النقد السيميائي العربي بين الكتب والدوريات

وصلت السيميائية إلى الثقافة العربية، كما المناهج النقدية الأخرى من خلال ترجمة الكتب، أو المقالات المنشورة في الدوريات[1]، أو عبر الدارسين الأكاديميين العرب الذين درسوا في الجامعات الغربية...

وأعيدت سيرة الثقافة العربية مع المناهج في إطار استقبال السيمياء[2]، ومرت كغيرها بمرحلة زمنية حتى استطاع فريق من الدارسين تمثّلها، ومحاولة الإفادة من معطياتها، وانشطرت إلى شطرين: شطر نظري، وشطر تطبيقي تواكبا معاً، وبدا أن الوضوح النظري لم يكن منفصلاً عن الدراسات التطبيقية، بل متكامل معها.

(1) انظر: الزهراني- معجب، في المقاربة السيميائية، **علامات في النقد الأدبي**، الجزء الثاني، المجلد الأول، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ديسمبر،1991، ص ص 143-163.

(2) صدرت كتب عديدة حاولت الربط بين علم الدلالة والسيمياء مثل كتاب فاخوري- عادل، علم الدلالة عند العرب، دراسة مقارنة مع السيمياء الحديثة، دار الطليعة، بيروت، 1985.
وكذلك: بعلي- حفناوي، (التجربة العربية في مجال السيمياء دراسة مقارنة مع السيميولوجيا الحديثة)، محاضرات الملتقى الوطني الثاني- السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر بسكرة، بسكرة، 2002، ص ص 157-178.

ولـم تمـر فتـرة طويلة، إلا وبدأ الحديث عن سـيميائيات متعـددة "اهتمّ كل منها بمظهر من مظاهر العلامة السيميائية: (المظهر التواصلي) و(المظهر الدلالي) و(المظهر الثقافي) و(المظهر التداولي)"(1).

وتجـدر الإشـارة إلـى بعـض المحطات المفصلية في تاريخ اسـتقبالها في الثقافة العربية بصفتها معرفة جديدة يمكن الإفادة منها في دراسة النصوص الأدبية، إذ تذكر بعض المصادر إلى أن أول من أشار إلى السيمياء في الثقافة العربية زكي نجيب محمود في كتابه (خرافة الميتافيزيقا) عام 1953، بالاستناد إلى مادعي بعلم الرموز كما أسماه الفيلسوف النمساوي الأصل / الأميركي الجنسية (رودولف كارنب)1891–1970. وقد جاء في كتاب زكي نجيب محمود تقسيم كارناب للسيميائية.

"1– البراجماطيقا prgmatics، وهي تبحث في المتكلم نفسه باعتباره أداة كلام.

2– السمانطيقا semantics، وهي البحث في مدلولات الألفاظ.

3– السنتاطيقا syntax.... وتعنى بالبحث في العبارات اللفظية نفسها من حيث تركيبها، وتكوينها بغض النظر عن المتكلم، وبغض النظر أيضاً عما تشير إليه الألفاظ من حيث مدلولاتها"(2).

وأخذ إصدار الكتب يتتالى ابتداء من منتصف الثمانينات، خاصة على المستوى النظـري مـن خـلال تقديـم السـيميائية في اللغة العربية، أو من خـلال ترجمة عدد من الكتب من لغاتها الأصلية، إضافة إلى محاولات متعددة لتطبيقها على الأجناس الأدبية المختلفـة، قبـل أن تبـدأ دور النشـر بنشـر أطروحـات أعـدت –غالباً– فـي الجامعات المغربية جعلت من النص الأدبي العربي مادة للتحليل السيميائي تشي بالدور الريادي لعدد من الجامعات في نشر المعرفة وخدمة البحث العلمي(3).

وتنبغـي الإشـارة كذلـك إلـى الـدور المركزي الـذي لعبته الدوريـات في توطين حضورها في الثقافة العربية، وشـكلت العقود الثلاثة الأخيرة مدار اهتمام بالسـيميائية خاصة في العقدين الأخيرين، إذ لا تكاد الأعداد السنوية لدورية من الدوريات العربية النقديـة والثقافيـة تخلـو مـن مقالة حاولـت التعريف بالسـيميائية وبدورها المأمول في

(1) المرابط– عبد الواحد، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، من أجل تصور شامل، ص 65.
(2) كوبلي، بول، وليتسا جانز، علم العلامات، تر: جمال الجزيري، ص 7.
(3) سنجد في الباب الثاني أن معظم الكتب الصادرة هي في الأصل أطاريح جامعية.

obeikandi.com

الثقافة العربية[1]، أو سعت لتقديم قراءة في أحد النصوص العربية[2].

وتدل قراءة الدوريات الرئيسية في الثقافة العربية على أن أول دراسة نشرت في دورية عربية وطبقت على الرواية للناقد سامي سويدان[3]، إذ حاول الناقد الإفادة من عدد من المعطيات السيميائية لمقاربة الرواية الشهيرة"اللص والكلاب"، واستعمل الناقد مصطلح السيميائية القصصية بديلاً عن السيميائية السردية، لأنها "تقدم منهجية محدثة في فهم وتحليل النصوص، الأدبية منها بشكل خاص، تعد وثبة متقدمة على ماشاع فيهما حتى اليوم، إلى حد تكاد تتصدر معه واجهة الاهتمامات الرئيسية في ميادين البحث الحديث للنصوص ومعالجتها"[4].

وقد تحدث الناقد عن العوامل والمستوى التركيبي والترسيمة والتحليل النحوي، والممثلين، وأتبع دراسته المكثفة بثبت للمصطلحات المستعملة فيها وأشار إلى أن هذه الدراسة في صورتها الأولى جزء من أطروحة دكتوراه أعدها في باريس.

وحاولت دراسة معجب الزهراني المعنونة (في المقاربة السيميائية)[5]، الكشف عن جذور السيمياء وتسمياتها وإمكانية الإفادة منها في قراءة الأدب العربي.

وهاهنا من المهم الإشارة إلى أن الدور المأمول الذي قامت به الدوريات العربية في إيصال السيميائية إلى الحركة الثقافية العربية ليس بجديد عليها، فالمتأمل يجد أن أثر الدوريات في الثقافة العربية المعاصرة كان دوراً مركزياً منذ بداية إصدارها، ولعل من الأدلة على أهمية ما نشر فيها من دراسات أن معظم ماكتب عن السيمياء ترجمة

---

(1) من ذلك الملف الذي نشر في **عالم الفكر**، العدد 3، المجلد 35، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير– مارس، 2007.

(2) صدرت دوريات عديدة جعلت من الاهتمام بالسيمياء محوراً رئيسياً، ونذكر في هذا السياق المجلات الصادرة عن الجامعات الجزائرية، أبرزها **بحوث سيميائية**، مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، ديسمبر 2006.

ومجلة **دراسات سيميائية أدبية لسانية** التي صدرت في فاس بالمغرب، وترأس تحريرها حميد لحمداني ومدير التحرير محمد العمري، عن سال، وحرصت على الاهتمام بهذا النوع من الدراسات.

(3) انظر: سويدان– سامي، اللص والكلاب لنجيب محفوظ، مقاربة سيميائية قصصية، **الفكر العربي المعاصر**، العددان 18–19، مركز الإنماء القومي، بيروت، شباط/ آذار، 1982، ص ص 216–226.

(4) المصدر نفسه، ص 216.

(5) انظر: الزهراني– معجب، في المقاربة السيميائية، **علامات في النقد الأدبي**، الجزء الثاني، المجلد الأول، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ديسمبر،1991، ص ص 143–163.

وتنظيراً وتطبيقاً قد نشر في كتب لاحقة لكتابها[1].

وقد بقيت مجموعة من الإجراءات السيميائية في عدد من الدراسات العربية "وفية للسيميائية الكلاسيكية ولم تأخذ في الحسبان التطورات الجذرية التي تصدرت المبحث الأول الذي يشتمل على الاعتراضات المنهجية التي سجلها تلامذة غريماس بخصوص المربع السيميائي، المسار التوليدي، السردية"[2]. في ظل انتصار بعض المهتمين للنقد الإجرائي للتحليل المحايث الذي جاء في هيئة ردة فعل على "المناهج التي تعنى بدراسة إطار الأدب ومحيطه وأسبابه الخارجية)"[3].

وفي محاولة لتوصيف حضور السيميائية في الثقافة العربية يمكن القول إنها مرت بمرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى: كانت فيها حاضرة؛ لكنها غير فاعلة، وتمتد من السبعينيات إلى منتصف التسعينيات، وهذه المرحلة عُنِيْتْ بتوطين الجانب النظري وتهيئة قبول للسيميائية، وقد اتجه قسم من الدراسات السيميائية نحو السيرة الذاتية، وقسم نحو الشعر[4] مثل ما قام به (عبد الملك مرتاض)[5] وقسم منها نحو النص السردي التراثي كدراسته لنص من (ألف ليلة وليلة)[6]، ومحمد الناصر العجيمي في دراسته لنصوص (عبدالله بن المقفع)[7] و(عبد الحميد بورايو) في تحليله لنصوص من (كليلة ودمنة)[8].

---

(1) الأمثلة كثيرة من ذلك مقالة صلاح فضل نشرها في كتابه: شفرات النص، دراسة سيميولوجية في شعرية القص والقصيد، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995، ط2. ومقالة سامي سويدان نشرها في كتابه: أبحاث في النص الروائي العربي، مؤسسة الأبحاث العربية، 1986، ط1.

(2) بن مالك- رشيد، السيميائيات السردية، ص 24.

(3) الماضي- شكري عزيز، محاضرات في نظرية الأدب، دار البعث، قسنطينة، 1984، ص 138.

(4) ينظر: علاق- فاتح، التحليل السيميائي للخطاب الشعري في النقد العربي المعاصر(مستوياته وإجراءاته)، مجلة جامعة دمشق، مج25، ع1-2، جامعة دمشق، دمشق، 2009، ص ص 149-166.

(5) مرتاض- عبدالملك، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة أنت ليلاي لمحمد العيد آل خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

(6) مرتاض- عبد الملك، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993.

(7) العجيمي- محمد الناصر، في الخطاب السردي، نظرية قريماس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993.

(8) بورايو-عبد الحميد، التحليل السيميائي للخطاب السردي، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2003.

وقد حار بعض الدارسين في تحديد أسباب الاختلاط في الاتجاهات، وتداخلها فـ "إذا كانت الساحة النقدية قد عرفت تخلفاً كبيراً في مجال ترجمة البحوث السيميائية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بحدة، يتعلق بطبيعة النصوص الغزيرة التابعة لمدرسة باريس التي يقع عليها الاختيار والأولويات التي ينبغي أن تؤخذ في الحسبان في عملية انتقائها. "[1].

والمرحلة الثانية: مرحلة الفاعلية والانتقال من الإطار النظري إلى الإطار التطبيقي. وقد تواكبت هذه المرحلة مع بروز حضور الرواية العربية، وإقامة الملتقيات الخاصة بالسيمياء في الجامعات الجزائرية والمغربية، والمختبرات والملتقيات والكتب التطبيقية والتنظيرية المتنوعة، التي أفرزت أعلاماً واتجاهات سيميائية[2].

وبدا أن الدارسين العرب، الذين تتلمذوا على أيدي أعلامها مثل (غريماس) و(كورتيس) و(إيكو) و(بارت) قد بدأت نتائج أعمالهم تظهر، خاصة بعد انتشار ثقافة التأويل والتفكيك، وعدم الاكتفاء برصد العلامة، في ظل نظريات القراءة، والسعي لإنتاج الدلالة بدلاً من تفسيرها، والبحث في لانهائيتها، وها هنا يمكن التفريق بين نقاد سيميائيين محترفين أنجزوا دراسات تطبيقية شكلت علامات مفصلية في تاريخ النقد السيميائي مثل (سعيد بنكراد)[3]. و(عبد اللطيف محفوظ) و(عبد المجيد نوسي) و(محمد الداهي) و(رشيد بن مالك)[4]، ودارسين أنجزوا دراسات أكاديمية وغير أكاديمية نشرت في كتب أو مجلات حاولوا تطبيق السيميائية تطبيقاً مدرسياً حرفياً...[5].

والمهتمون بالسيميائية تتجاذبهم رؤيتان: الأولى هي توطين حضورها في الثقافة العربية، وشرحها للمتلقين، وتحويلها من مادة ثقافية متخصصة إلى معرفة يمكن أن

(1) بن مالك- رشيد، السيميائيات السردية، ص 26.

(2) أصدرت تلك الجامعات مشاركات الباحثين في تلك الملتقيات في كتب نذكر على سبيل المثال: محاضرات الملتقى الوطني الثاني/ السيمياء والنص الأدبي-15-16أفريل2002، مرجع سبق ذكره.

(3) أصدر بنكراد عدداً من الكتب ترجمة وتأليفاً: تنظيراً وتطبيقاً، إضافة إلى مجلته علامات وموقعه الإلكتروني، وفي القرن الحادي والعشرين عملت الدار العربية للعلوم ناشرون، ومنشورات الاختلاف ببيروت والجزائر على إعادة طباعة معظم الكتب السيميائية.

(4) جهود (بن مالك) السيميائية كثيرة في الجانبين النظري والتطبيقي، نذكر هاهنا معجمه الشهير: قاموس مصطلحات التحليل السيميائي للنصوص (عربي - إنجليزي- فرنسي)، دار الحكمة، الجزائر، 2000.

(5) الأمثلة كثيرة منها: النعيمي- فيصل غازي، العلامة والرواية، دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمن منيف، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2010، ط1.

تفيد منها شريحة واسعة.

والثانية الخوف من أن مثل هذا التبسيط قد يقود إلى تجريدها من خصوصيتها العلمية، ويجعلها تتخلى عن عمقها، وتميزها المنهجي والمعرفي.

وعانت السيميائية مثل سواها من الاتجاهات النقدية من تباينات في استقبالها كما رأينا، فقبل أن يتعرف الجمهور إلى سماتها، ومصطلحاتها، وطرائقها التحليلية؛ بدأ تداخلها مع التأويل والتفكيك والنقد الثقافي يعلن عن نفسه بصفة هذه العلوم معارف متمِّمة لاشتغالها خاصة في ظل بعض اتجاهاتها، لكن تداخلها مع المناهج النقدية والنظريات الثقافية نمَّ في بعض مظاهره على ضعف في المعرفة، وهذا الضعف يجافي طبيعة النقد.

وأثيرت إبان تلقي السيميائية إشكالية تشتتِ الثقافة العربية بين الخصوصية الثقافية والتعددية، بما أن هذه القضية راحت تشغل بال باحثين عديدين ليس في الثقافات غير الفاعلة؛ بل حتى في الثقافات التي توسم بـ (المركزية)[1]. ويمكن العثور على عدد من الاتجاهات في النقد التطبيقي للسيميائية في الرواية العربية التي لا تعني إخلاص ناقد لهذا الاتجاه أو ذاك، بل تعني تطبيقات متداخلة حيناً، ونقية حيناً آخر مثل: الاتجاه الباريسي، والاتجاه الثقافي، والاتجاه التداولي، والاتجاه التوفيقي.

والمتمعن في حركة النقد السيميائي العربي يجد أن عدداً من الدراسات حاولت الإفادة مما يمكن دعوته بالسيمياء العامة، وقراءة العلامات في ضوء فهمها، والتمعن في دورها وفلسفتها، دون الدخول في تفاصيلها، في حين أن عدداً آخر من الدراسات قدمت تطبيقات عربية في الرواية قائمة على الأرضية النظرية الثقافية العربية، وستكشف الفصول اللاحقة عن جهود مختلفة عبرت عن منحيين رئيسيين: المنحى الأول: غنى عوالم السيمياء والإمكانات التي تكتنزها على مستوى التحليل.

والمنحى الثاني المحاولات الدؤوبة للنقاد العرب للإفادة منها، وتطويعها لقراءة النص الروائي العربي، نظراً لما تحمله من إمكانات تبرز دور الناقد، والمتن الروائي، وعلاقتهما بالسياق المنتِج، مما يحمل إشارة إلى الرغبة الشديدة بالاهتمام بأعمدة النص الرئيسية كلها؛ المتمثلة في: المنتج والمتلقي والرسالة، وهي في عملية تقاطع واشتباك، وليس بصفتها عوالم منفصلة يستغني أحدها عن الآخر.

(1) نصر– نجوى، التفاعل الحضاري في نتاج أدبي، **كتابات معاصرة**، العدد27، المجلد 7، بيروت، نيسان – أيار1996، ص 24.